سلسلة النبي وأهل بيته قدوة وأسوة

٧



سماحة المرجع الديني آية الله العظمى المجاهد

السيد محمد تقي المدرسي

الإمام الباقر عليه السلام

١٤٣١

قدوة وأسوة

الإمام الباقر (عليه السلام)

قدوة وأسوة

سلسلة النبي وأهل بيته قدوة وأسوة - ٧

الإمام الباقر عليه السلام

قدوة وأسوة

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

هوية الكتاب:

* الكتاب: الإمام الباقر عليه السلام قدوة وأسوة.

* المؤلف: المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

* الطبعة: الثانية، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

* الناشر: مركز العصر للثقافة والنشر، لبنان، بيروت. (alasrr@gmail.com).

دار كميل للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، طريق المطار، ص.ب: ٧٩٥٧/ ١١ (dar_komail@yahoo.com).

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعمتَ عَلَيهِمْ

غَيرِ الْمَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ٧ ﴾

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

في فاتحة الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام ينبغي أن نشير إلى نهجين متنافرين في تقييم حياة الأئمة، والنهج القديم بينهما.

فهناك فريق يقيّمون حياة المعصومين عليهم السلام بمقياس السياسة، ومدى دورهم فيها. ويكاد تفسيرهم لعبادات الأئمة، وعلومهم، وأخلاقهم يكون أيضاً بمنظار سياسي.

في حين تجد أغلب المؤرخين لحياتهم عليهم السلام يختصرون حياتهم في حدود فردية ضيقة، حتى يفصلونها عن السياق الزمني لها.

وبين المنهجين حالة وسطى تجعل حياتهم ذات إشعاع فردي يتجاوز حدود الزمان والمكان، وذات أفق سياسي يتفاعل مع الظرف التاريخي الخاص به.

بلى. الأئمة هم قدوات البشر، ونسبة رجال السياسة إلى سائر الناس نسبة ضئيلة، فلم يكن من المناسب أن يكون كل قدوات البشر في قمة السلطة حتى يكون سلوكهم مناراً لأمثالهم من أصحاب السلطة فقط، بل كان من المعقول أن يكونوا في مختلف المستويات الاجتماعية حتى تتم حجة الله على خلقه بأنفذ ما يكون بلاغاً وقوةً!

ولو كانوا كلهم في قمة السلطة لقال الناس: إن مسيرتهم تخص أولي السلطة فحسب، فما لنا والدخول في شأن السلاطين.

على أن بعضهم لا يزال يحاول التنصُّل من اتّباع الأنبياء والأوصياء والصالحين، بزعم أنهم ليسوا ببشر، وبالتالي فهو لا يمكنه أن يتّبع هداهم، أَوَيَقْدِرُ أحدُنا أن يتمثل شخصيَّة الملائكة؟!

إلّا أن ما نزل بأنبياء الله وأوصيائهم من الضنك والأذى، وما تعرضوا له من السجن والتعذيب والتهجير والخوف وحتى القتل والأسر والتشهير؛ كل ذلك دليل كونهم بشراً أمثالنا مُيِّزُوا بالوحي والعزم والاعتصام بحبل الله، وقال ربنا سبحانه:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾(١).

وقال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٢).

ولعل هذه الحكمة كانت أيضاً وراء إذن الله سبحانه بتعرض أوليائه لبعض الأذى، لكيلا يرفعهم الناس إلى مستوى الألوهية فيهلكوا، ولكي يرفع الله به درجاتهم عنده، ولكيلا يترك الدِّينَ البسطاءُ من الناس فراراً من الأذى.

ونحن إذ نشرع في الاستضاءة بسيرة الإمام الخامس من أئمة أهل البيت عليهم السلام، والعلم السابع من قدوات الأئمة المعصومين عليهم السلام بجوار مقام السيدة زينب في الشام؛ نسأل الله أن يُتِمَ نورنا به، ويجعلنا من أشد تابعيه تمسُّكاً وأحسنهم عاقبة.. إنه ولي التوفيق.

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١١.

الفصل الأول

المِيلادُ المَيمُونُ

ولد الإمام الباقر عليه السلام من والدين علويين هما الإمام السجاد عليه السلام، وأم عبد الله بنت الإمام الحسن المجتبى عليه السلام. وكانت ولادته قبل أربع سنوات من واقعة الطف الرهيبة، أي في عام ٥٧ من الهجرة. وكان ذلك في الثالث من صفر أو العاشر من رجب، (في ذلك اختلاف بين الرواة). ولم يكن أكبر أبناء أبيه سنّاً، إلّا أنه كان أولاهم بالإمامة فنصبه والده لها اتّباعاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقد سأل الزهري والده الإمام السجاد عليه السلام عن ذلك وقال: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ هَلَّا أَوْصَيْتَ إِلَى أَكْبَرِ أَوْلَادِكَ؟ قَالَ: «**يَا أَبَا عَبْدِاللهِ! لَيْسَتِ الْإِمَامَةُ بِالصِّغَرِ وَالْكِبَرِ، هَكَذَا عَهِدَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ** صلى الله عليه وآله، **وَهَكَذَا وَجَدْنَاهُ مَكْتُوباً فِي اللَّوْحِ وَالصَّحِيفَةِ**»[1].

وكانت أمّه - حسبما قال الإمام الصادق عليه السلام - «**صِدِّيقَةٌ لَمْ يُدْرَكْ فِي آلِ الحَسَنِ مِثْلُهَا**»[2].

النشأة الطيبة:

عاش في ظل جده السبط الشهيد عليه السلام أربع سنوات، وصبغت شخصيته الفذة بتلك الصبغة الإلهية التي تجلّت في حياة السبط الشهيد.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٣٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢١٥.

ولا ريب في أن مأساة كربلاء الفجيعة تركت طابعها على نفسية الإمام الباقر عليه السلام الذي رافق صورها وشاهدها لحظة بلحظة؛ لأنه -حسب بعض الرواة- كان ممن حضرها مع سائر أبناء الأسرة الهاشمية.

وبعد تلك الفاجعة عاش الإمام (١٩) سنة و(٦٠) يوماً في ظل والده سيد الساجدين[1]، حيث كانت حياته الكريمة مثلاً أعلى للصبغة الربانية، وظل شعاع تلك الحياة يضيء درب السالكين إلى الله، حتى اليوم.

ومنذ باكورة حياته المباركة تجلّت فيه ملامح الإمامة. وقد جاء في الحديث المأثور عن أبي الزبير محمد بن مسلم المكي قال: «كُنَّا عِنْدَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ فَأَتَاهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ وَمَعَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ وَهُوَ صَبِيٌّ، فَقَالَ عَلِيٌّ لِابْنِهِ: **قَبِّلْ رَأْسَ عَمِّكَ**، فَدَنَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَابِرٍ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ، فَقَالَ جَابِرٌ: مَنْ هَذَا؟ وَكَانَ قَدْ كُفَّ بَصَرُهُ. فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ عليه السلام: **هَذَا ابْنِي مُحَمَّدٌ**، فَضَمَّهُ جَابِرٌ إِلَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ. فَقَالُوا لِجَابِرٍ: كَيْفَ ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِاللهِ؟

فَقَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَالْحُسَيْنُ فِي حَجْرِهِ وَهُوَ يُلَاعِبُهُ فَقَالَ: «**يَا جَابِرُ! يُولَدُ لِابْنِيَ الْحُسَيْنِ ابْنٌ يُقَالُ لَهُ عَلِيٌّ، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ لِيَقُمْ سَيِّدُ الْعَابِدِينَ، فَيَقُومُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، وَيُولَدُ لِعَلِيٍّ ابْنٌ يُقَالُ لَهُ مُحَمَّدٌ، يَا جَابِرُ! إِنْ رَأَيْتَهُ فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ، وَاعْلَمْ أَنَّ بَقَاءَكَ بَعْدَ رُؤْيَتِهِ يَسِيرٌ**».

فلم يعش (جابر) بعد ذلك إلّا قليلاً ومات»[2].

وبعد والده اضطلع بمقام الإمامة العامة.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢١٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٢٧.

الإمامة وعلم الأنبياء:

عندما آلت شمس بني أمية إلى المغيب وضعفت سلطتهم بفعل الثورات الرسالية المتلاحقة؛ وجد الإمام الباقر عليه السلام فرصة لنشر معارف القرآن التي كانت مستوعبة في الصحيفة التي توارثها أهل البيت عليهم السلام من رسول الله.

في ذلك اليوم كان المجتمع الإسلامي بحاجة إلى معارف القرآن، إنه قد اتسع في كل أفق وأصبح خيمة تشمل شعوباً مختلفة وبقايا حضارات، فعلى أي أساس نُقيم هذا المجتمع الجديد؟ وما هي قِيَمه التوحيدية وأطر الثقافة العامة وروح قوانينه في مختلف الحقول؟

بالأمس نشر الإمام السجاد عليه السلام راية التوحيد عبر أدعيته وابتهالاته، وصنع بها حياة المجتمع المسلم وبالذات المجتمع الرسالي التابع لخط أهل البيت عليهم السلام.

أما اليوم فإن تلك القاعدة التوحيدية الرصينة قد رست، ويأتي الإمام الباقر عليه السلام ليبني عليها صرح المعارف، ويكمله الإمام الصادق عليه السلام ببيان المزيد من التفاصيل في الحكمة الإلهية والتفسير والفقه.

ما هي المعارف التي نشرها الإمام الباقر عليه السلام وكيف استطاع إليها سبيلاً؟

قد يُسلك في طريق العلم من التجارب الجزئية صعوداً إلى القواعد العامة، وقد ننطلق من تلك القواعد إلى المفردات الجزئية. وبينما السبيل الأول هو منهج عموم الناس في بلوغ العلم، فإن المنهج الثاني هو سبيل علم الأنبياء وأوصيائهم المتصلين بالوحي. ومن هنا جاء في الحكمة

المأثورة: العلم نقطة كثَّرها الجاهلون.

والأساس الظاهر لعلم الرسول وخلفائه المعصومين عليهم السلام، هو القرآن المفسر بالحديث النبوي، ولكن الأساس الحقيقي هو نور العقل الذي يتوهَّج بالإيمان والإلهام في أفئدة العارفين بالله. ذلك العقل الذي أُوتي الناس منه قدر ضئيل وأكمله الله لنبيِّه وأوصياء نبيّه. وإن توهُّجَ نور العقل عند أبناء البشر، وتجلِّيه في تلك المعارف الأولية التي يعرفها كل شخص، وفي تلك القيم التي يتحاكم الناس إليها فيما بينهم، وفي تلك الإضاءات التي نجدها عند طائفة من الناس دون غيرهم تجعلهم نوابغ وعظماء كبار؛ كل ذلك يهدينا إلى معنى العلم الكوني الذي يُلقيه ربنا في روع الصفوة من أوليائه. وجاء في الحديث الشريف: «**العِلْمُ نُوْرٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِيْ قَلْبِ مَنْ يَشَاءُ**»[1].

وترى بعض الناس يتشكك في مثل هذا العلم عند الأنبياء والأئمة، والمحدثين من فقهاء الأمة؛ مستشهداً بقول الله سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[2].

وقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[3].

حقًا إذا كان مُراد هؤلاء أن الإنسان لا يعلم الغيب بصفة ذاتية، فإنه حق لا ريب فيه، ولكن: إذا أرادوا أنَّ الله لا يقدر على تعليم الغيب لبعضهم، نقول: بلى هو قادر، أليس كلنا يعرف قدراً من العلم بالمستقبل، فمثلاً أولسنا نعرف أننا نموت وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله

(١) مصباح الشريعة، ص١٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٣) سورة النمل، الآية: ٦٥.

يبعث من في القبور، وأن الشمس تُشرق غداً وهي لابدّ غاربة اليوم؟ وعشرات من المعارف المستقبلية التي تشكل أكثر من نصف معلوماتنا وهي أساس العلم، والهدف الأساسي منه؟

والله سبحانه علّم الإنسان ما لا يعلم، والوحي جزء من علم الغيب الذي علّمه ربنا لمن ارتضاه من عباده؛ وقد قال ربنا سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾(١).

وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

وقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾(٣).

وأخيراً: إن هؤلاء شككوا في (مدى) علم الأنبياء والأوصياء، إنهم لم يستوعبوا كيف يمكن لبشر محدود أن يبلغ علم الحقائق من لدن رب العزة، فهم ينطلقون في تكذيب هذا (المدى) من العلم من المنطلق ذاته الذي كذّب على أساسه الأولون بالنبوة، وهو الجهل بالمقام الذي جُعل للإنسان الذي يتوجه إلى الله ويُخلص له وجهه. بيد أن هؤلاء (اضطروا) إلى الاعتراف بالنبوة، ولما يعرفوا أبعادها فقلصوها إلى أقل قدر ممكن، وحاولوا الكفر بمعاجز الأنبياء وبمقاماتهم الرفيعة أنى استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وإذ أعجزتهم الحيلة في ذلك عمدوا إلى

(١) سورة الجن، الآية: ٢٦-٢٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٧٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

الأوصياء فنفوا كرامتهم على الله، وإمكانية تلقيهم العلم من مصدر الغيب إلهاماً، ولو أنصفوا أنفسهم وأنصتوا للحق لما وجدوا مانعاً عقليًا من الاعتراف بذلك، بعد أن توافرت أدلة بالغة القوة تهديهم إليه من خلال دراستهم لكلماتهم من دون تعصُّب أعمى أو أحكام مسبقة.

وقد ابتُلي الإمام الباقر عليه السلام، شأنه شأن سائر الأئمة عليهم السلام، بنمطين متنافرين من الناس، فبينما زعم بعضهم أنه ليس من البشر وبذلك مرق من الدين بسبب غلوه، نجد كثيراً من الناس لم يعترفوا بمقامه الكريم.

من **النمط الأول**: كان المغيرة بن سعيد الذي غلا في الدين وكذب على الإمام الباقر عليه السلام، حتى قال عنه الإمام لبعض أصحابه (سليمان اللَّبان): «أَتَدْرِي مَا مَثَلُ الْمُغِيرَةِ بْنِ سَعِيدٍ:

قَالَ: قُلْتُ: لَا.

قَالَ: مَثَلُهُ مَثَلُ بَلْعَمَ الَّذِي أُوتِيَ الاِسْمَ الْأَعْظَمَ الَّذِي قَالَ الله ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[1]»[2].

أما **النمط الثاني**: فهم أغلب الذين لم يحتملوا علم الإمام ومعرفته بما لا يعرفون، وكرامته على الله، واستجابة الله دعاءه في الأمور!!

فهؤلاء لا ينكرون فضائل أهل البيت عليهم السلام فقط، بل ويرون أنها من المستحيلات، لماذا؟ لأنهم لما يبلغوا معرفة أنبياء الله وأوليائه عليهم السلام، ومعرفة كرامتهم على الله. ولو كانوا يتفكرون في خلق الإنسان، وكيف

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٥.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٣٢.

استخلفه الله في الأرض، وسخّر له ما فيها بما آتاه من علم وقدرة؛ لعرفوا أن من حكمة الله سبحانه أن يفضل بعض الناس على بعض في العلم، وليهب لمن أطاعه وأخلص له المزيد من المعرفة سواء عبر الوحي كالرسل، أو عبر الإلهام كما فعل بأوصياء الرسل.

ثم إن ما أوحى به الله من الكتاب فيه آفاق من العلم لا يبلغها إلّا من امتحن الله قلبه بالإيمان، لأنه نور الله الذي يشع من مشكاة النبوة. إنه ذكر الله الذي يرتفع من بيوت الأوصياء كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾(1).

قال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(2).

ثم قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾(3).

هكذا نور الله الذي منح جزءاً بسيطاً منه للإنسان، فإذا به يعرف علماً يُسَخِّرُ به كل شيء من حوله. إنه لو سلب منه ترى ماذا يبقى له؟ هل يستطيع آنئذ أن يعرف شيئاً. فلو اجتمعت البشرية وحاولوا إعادة مجنون إلى رشده، أو شيخ مخرف إلى سابق علم، أو تعليم هرة دروس الرياضيات، هل استطاعوا إلى ذلك سبيلاً؟ كلا.. فلماذا ينكرون على الله الذي منح البشر هذا النور أن يكون قادراً على مضاعفته لخيرة عباده؟

هكذا نعرف أن الوحي والإلهام هما في إطار سنن الله في خلقه، يقبلهما العقل ويطمئن إليهما القلب.

---

(1) سورة النور، الآية: ٣٥.

(2) سورة النور، الآية: ٣٦-٣٧.

(3) سورة النور، الآية: ٤٠.

وعلم أئمة أهل البيت عليهم السلام لا يخرج من دائرة هذه السنن أيضاً، فإما أنّه مستوحىً من الوحي أو بالإلهام.

ويتصل علم الأئمة بالوحي عبر السبل التالية:

أولاً: العلـم من كتاب الله، بالتدبر فيـه وتأويل آياته على الحقائق والوقائـع. أليس في القرآن علم ما كان وما يكون، وفصل ما هو كائن؟ ومن أولى بكتاب الله ممن أُنزل في بيوتهم وزُقّوا علمه مع اللبن زقاً؟

وقد كان الأئمة عليهم السلام شـديدي الوَلَهِ بالقرآن، عظيمي الاحترام لـه، وكانـوا يختمونـه في كل ثلاثـة أيـام مرة، وربـما في كل يـوم، وكانوا يقولون: إنهم يسـتفيدون منه علماً جديـداً كلما أعادوا قراءته، حتى أنهم اسـتفادوا علم الآفاق من آياته الكريمة، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام -فيما روي عنه-: "**وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ، وَأَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ، وَأَعْلَمُ مَا فِي الدُّنْيَا، وَأَعْلَمُ مَا فِي الْآخِرَة**".

فرأى تَغَيُّرَ جَمَاعَةٍ فَقَالَ -وهو يخاطب بكير بن أعين-:

"**يـا بُكَـيْرُ! إِنِّي لَأَعْلَمَ ذَلِكَ مِنْ كِتَـابِ اللهِ تَعَالَى إِذْ يَقُولُ:** ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾(١)"(٢).

ثانياً: أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله والتي توارثوها من آبائهم عبر جدهم الأعلى الإمام أمير المؤمنين، وجدتهم الطاهرة فاطمة الزهراء عليهم السلام.

فقـد جـاء في الحديـث المأثـور عـن الإمـام الباقر عليه السلام: أنـه قال لجابر بن عبد الله:

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢٨.

"يَا جَابِرُ! إِنَّا لَوْ كُنَّا نُحَدِّثُكُمْ بِرَأْيِنَا وَهَوَانَا لَكُنَّا مِنَ الهَالِكِينَ، وَلَكِنَّا نُحَدِّثُكُمْ بِأَحَادِيثَ نَكْنِزُهَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله كَمَا يَكْنِزُ هَؤُلَاءِ ذَهَبَهُمْ وَوَرِقَهُم"[1].

ومعروف أن خزائن علم النبوة كانت قد انتقلت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وورثها أهل بيته عليهم السلام. ويبدو أنها كانت مكنونة في جفر عظيم.

حيث جاء في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: "إِنَّ عِنْدِي الجَفْرَ الأَبْيَضَ".

فلما سأله الرواي: فَأَيُّ شَيْءٍ فِيهِ؟ قال:

«زَبُورُ دَاوُدَ، وَتَوْرَاةُ مُوسَى، وَإِنْجِيلُ عِيسَى، وَصُحُفُ إِبْرَاهِيمَ، وَالحَلَالُ وَالحَرَامُ، وَمُصْحَفُ فَاطِمَةَ، مَا أَزْعُمُ أَنَّ فِيهِ قُرْآناً، وَفِيهِ مَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْنَا وَلَا نَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ، حَتَّى فِيهِ الجَلْدَةُ وَنِصْفُ الجَلْدَةِ وَرُبْعُ الجَلْدَةِ وَأَرْشُ الخَدْشِ» الحديث[2].

وكان في هذا الجفر مجموعة تراث أهل البيت من أحاديث النبي.

منها مصحف فاطمة، وهو مجموعة أحاديثها التي كتبها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في صحيفة، وحسبما جاء في رواية: «فَفِيهِ مَا يَكُونُ مِنْ حَادِثٍ وَأَسْمَاءُ مَنْ يَمْلِكُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَة»[3].

كما أن من تراثهم كتاب يسمى بالجامعة، وهو من إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وكتابة أمير المؤمنين عليه السلام، طوله سبعون ذراعاً، وفيه أحكام

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢٨.
(٢) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٣٧.
(٣) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٨.

الشريعة كلها.

هكذا جاء في حديث مروي عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «سَمِعْتُهُ يَقُولُ وَذَكَرَ ابْنُ شُبْرُمَةَ فِي فُتْيَا أَفْتَى بِهَا: أَيْنَ هُوَ مِنَ الْجَامِعَةِ إِمْلَاءِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله بِخَطِّ عَلِيٍّ عليه السلام، فِيهَا جَمِيعُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ حَتَّى أَرْشُ الْخَدْشِ»[1].

وهذا التراث العلمي كان ينتقل من أئمة أهل البيت عليهم السلام من كابر لكابر، ووجوده عند واحد من أبناء الإمام الراحل كان شاهداً على أنه وصيه. لذلك نقرأ في تاريخ الإمام الباقر عليه السلام أن والده الإمام السجاد عليه السلام التفت إلى ولده وهو في مرض الموت وهم يجتمعون عنده، ثم التفت إلى محمد بن علي ابنه، فقال: «يَا مُحَمَّدُ! هَذَا الصُّنْدُوقُ اذْهَبْ بِهِ إِلَى بَيْتِكَ. قَالَ: أَمَا إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، وَلَكِنْ كَانَ مَمْلُوءاً عِلْماً»[2].

ونتساءل: كيف تجتمع أحكام الشريعة كلها في كتاب محدود طوله سبعون ذراعاً؟ لعل ذلك الكتاب كان محتوياً على أصول العلم ومعاقله وضيائه، حيث كان الأئمة عليهم السلام يستلهمون منها سائر أبواب العلم. كما علّم النبي صلى الله عليه وآله الإمام عليًّا عليه السلام أبواب العلم جميعاً بهذه الطريقة، حيث جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «أَوْصَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله إِلَى عَلِيٍّ عليه السلام بِأَلْفِ كَلِمَةٍ يَفْتَحُ كُلُّ كَلِمَةٍ أَلْفَ كَلِمَةٍ»[3].

وفي تعبير آخر جاء على لسان الإمام الباقر عليه السلام عن جده أمير

(١) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٣٣.

(٢) الكافي، ج ١، ٣٠٥.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٢٩.

المؤمنين أنه قال: «**لَقَدْ عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله أَلْفَ بَابٍ يَفْتَحُ كُلُّ بَابٍ أَلْفَ بَابٍ**»[1].

وهكـذا بيّن الأئمة أن عندهم أصول العلم ومعاقله مما يظهر أنها هي التي في تراثهم من الرسـول صلى الله عليه وآله، فقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله أَنَالَ فِي النَّاسِ وَأَنَالَ، وإنَّا أهـل بيت عِنْدَنَا عُرَى الْعِلْمِ وَأَبْوَابُ الْحُكْـمِ وَمَعَاقِلُ الْعِلْمِ وَضِيَاءُ الْأَمْرِ..**»[2].

وفي حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله قَـدْ أَنَـالَ فِي النَّاسِ وَأَنَالَ وَأَنَالَ، -يُشِيرُ كَذَا وَكَـذَا-، وَعِنْدَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ أُصُولُ الْعِلْمِ وَعُرَاهُ وَضِيَاؤُهُ وَأَوَاخِيهِ**»[3].

علم الإلهام:

إذا كـان العلـم نور الله يقذفه في قلب من يشـاء فما الذي يمنع عن قذف نور العلم في قلب أوليائه؟! هكذا كان من مصادر علم الأئمة عليهم السلام الإلهام، والذي ترافقه سكينة تجعلهم يثقون بأنه من عند الله.

كذلـك روي عن الإمام الصـادق عليه السلام أنه قال: «**إِنَّ عِلْمَنَا غَابِرٌ وَمَزْبُورٌ وَنَكْتٌ فِي الْقُلُوبِ وَنَقْرٌ فِي الْأَسْمَاعِ. فَقَالَ: أَمَّا الْغَابِرُ فَمَا تَقَدَّمَ مِنْ عِلْمِنَا، وَأَمَّا الْمَزْبُورُ فَمَا يَأْتِينَا، وَأَمَّا النَّكْتُ فِي الْقُلُوبِ فَإِلْهَامٌ، وَأَمَّا النَّقْرُ فِي**

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٣٢.

(٣) بحار الأنوار، ج ٢٦، صص ٣١. والأواخي: جمع أوخية، وهي ما يشد به الدابة، أي ما يحفظ به العلم.

الْأَسْمَاعِ فَأَمْرُ الْمَلَكِ»[1].

وروى زرارة مثل هذا الحديث وأضاف: «قُلْتُ: كَيْفَ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ الْمَلَكَ وَلَا يَخَافُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ لَا يَرَى الشَّخْصَ قَالَ: «**إِنَّهُ يُلْقَى عَلَيْهِ السَّكِينَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الْمَلَكِ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ اعْتَرَاهُ فَزَعٌ، وَإِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ -يَا زُرَارَةُ- لَا يَتَعَرَّضُ لِصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ**»[2].

وعلم الإمام الباقر عليه السلام -كما سائر أئمة الهدى عليهم السلام- انبعث من هذه الروافد، فلم يكن غريباً، ما أظهر الله على لسانه من معارف الدين. حتى قال الشيخ المفيد رحمه الله: «لم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين عليهما السلام من علم الدين والآثار والسنّة وعلم القرآن وسيرة وفنون الآداب ما ظهر عنه»[3].

من هنا ترى عظماء الفقه والحديث يعترفون بالمصدر الإلهي لعلمه الغزير، فقد جاء في كشف الغمة عن الحافظ عبد العزيز بن الأخضر الجنابذي في كتابه (معالم العترة الطاهرة) عن الحكم بن عتيبة (وكان من كبار فقهاء عصره) أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[4].

قال: كان والله محمد بن علي منهم»[5].

وحُكي عن أبي نعيم في كتابه الحلية أنه: «سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عُمَرَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَلَمْ يَدْرِ بِمَا يُجِيبُهُ، فَقَالَ: اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ الْغُلَامِ فَسَلْهُ وَأَعْلِمْنِي بِمَا

---

(١) الكافي، ج١، ص٢٦٤.
(٢) بحار الأنوار، ج٢٦، ص٦٠.
(٣) في رحاب أئمة أهل البيت في سيرة الباقر، ص٧.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٧٥.
(٥) في رحاب أئمة أهل البيت في سيرة الباقر، ص٦.

يُجِيبُكَ، وأَشَارَ بِهِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَاقِرِ، فَأَتَاهُ فَسَأَلَهُ فَأَجَابَهُ، فَرَجَعَ إِلَى ابْنِ عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: إِنَّهُمْ أَهْلُ بَيْتٍ مُفَهَّمُونَ»[1].

والتعبير بكلمة (مفهمون) كان شائعاً في ذلك العصر، وكان يعني أنهم مؤيدون من عند الله يُلقي عليهم الرب علماً بالإلهام.

ولذلك ترى من العلماء من يقصدونه من كل أفق بحثاً عن علمه الإلهي حتى روي عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَطَاءٍ الْمَكِّيِّ قَالَ: «مَا رَأَيْتُ الْعُلَمَاءَ عِنْدَ أَحَدٍ قَطُّ أَصْغَرَ مِنْهُمْ عِنْدَ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْحَكَمَ بْنَ عُتَيْبَةَ مَعَ جَلالَتِهِ فِي الْقَوْمِ بَيْنَ يَدَيْهِ كَأَنَّهُ صَبِيٌّ بَيْنَ يَدَيْ مُعَلِّمِهِ»[2].

وقد روى عنه محمد بن مسلم ذلك الفقيه المتبحر ثلاثين ألف حديث، أما جابر الجعفي فقد قال: «حَدَّثَنِي أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام سَبْعِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ لَمْ أُحَدِّثْ بِهَا أَحَداً أَبَداً»[3].

ولأن الظروف السياسية كانت تتسم ببعض الانفراج فلقد تسنّى للإمام أن يحاجج الكثير من المخالفين له ويعيدهم إلى جادة الصواب، والتاريخ يسجل لنا بعض تلك الاحتجاجات، وننقل شيئاً منها لتكون شاهدة على ما وراءها من الحجج البالغة.

١ – لقد كان عبد الله بن نافع بن الأزرق واحداً من قادة الخوارج الذين كانوا أشد الفرق عداءً للإمام علي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام، وكان يقول: «لَوْ أَنِّي عَلِمْتُ أَنَّ بَيْنَ قُطْرَيْهَا أَحَداً تُبْلِغُنِي إِلَيْهِ الْمَطَايَا يَخْصِمُنِي أَنَّ

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٨٩.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٨٦.
(٣) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٤٠.

عليًا عليه السلام قتل أهل النهروان وهو لهم غير ظالم لرحلت إليه.

فقيل له: ولا ولده.

فقال: أفي ولده عالم؟

فقيل له: هذا أول جهلك. وهم يخلون من عالم؟!

فقال: فمن عالمهم اليوم؟

قيل: محمد بن علي بن الحسين بن علي عليه السلام.

قال: فرحل إليه في صناديد أصحابه حتى أتى المدينة فاستأذن على أبي جعفر عليه السلام

فقيل له: هذا عبدالله بن نافع.

فقال: **وما يصنع بي وهو يبرأ مني ومن أبي طرفي النهار؟!**

فقال له أبو بصير الكوفي: جعلت فداك! إن هذا يزعم أنه لو علم أن بين قطريها أحداً تبلغه المطايا إليه يخصمه أن عليا عليه السلام قتل أهل النهروان وهو لهم غير ظالم لرحل إليه.

فقال له أبو جعفر عليه السلام: **أتراه جاءني مناظراً؟**

قال: نعم.

قال: **يا غلام! اخرج فحط رحله وقل له: إذا كان الغد فأتنا.**

قال: فلما أصبح عبدالله بن نافع غدا في صناديد أصحابه، وبعث أبو جعفر عليه السلام إلى جميع أبناء المهاجرين والأنصار فجمعهم، ثم خرج إلى الناس في ثوبين ممغرين، وأقبل على الناس كأنه فلقة قمر، فقال:

«الحَمْـدُ للهِ مُحَيِّثِ الحَيْثِ وَمُكَيِّفِ الْكَيْفِ وَمُؤَيِّـنِ الأَيْنِ. الحَمْدُ للهِ الَّذِي ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى آخِـرِ الآيَـةِ، وَأَشْـهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْـهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اجْتَبَاهُ وَهَـدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ. الحَمْـدُ للهِ الَّـذِي أَكْرَمَنَـا بِنُبُوَّتِـهِ، وَاخْتَصَّنَا بِوَلَايَتِهِ. يَا مَعْشَرَ أَبْنَاءِ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ! مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَنْقَبَةٌ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَلْيَقُمْ وَلْيَتَحَدَّثْ».

قَـالَ: فَقَامَ النَّاسُ فَسَرَدُوا تِلْكَ المَنَاقِـبَ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: أَنَا أَرْوَى هَـذِهِ المَنَاقِبِ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَإِنَّمَا أَحْـدَثَ عَلِيٌّ الْكُفْرَ بَعْدَ تَحْكِيمِهِ الحَكَمَيْنِ، حَتَّى انْتَهَوْا فِي المَنَاقِبِ إِلَى حَدِيثِ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُـولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُـولُهُ، كَرَّاراً غَيْرَ فَرَّارٍ، حتى لَا يَرْجِعُ [حَتَّى] يَفْتَحَ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ».

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الحَدِيثِ؟

فَقَالَ: هُوَ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَكِنْ أَحْدَثَ الْكُفْرَ بَعْدُ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ أَخْبِرْنِي عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: أَحَبَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَوْمَ أَحَبَّهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَقْتُلُ أَهْلَ النَّهْرَوَانِ أَمْ لَمْ يَعْلَـمْ؟ قَالَ: فَإِنْ قُلْتَ: لَا، كَفَرْتَ. قَالَ: فَقَالَ: قَدْ عَلِمَ، قَالَ: فَأَحَبَّهُ اللهُ عَـلَى أَنْ يَعْمَلَ بِطَاعَتِـهِ أَوْ عَلَى أَنْ يَعْمَلَ بِمَعْصِيَتِهِ؟ فَقَـالَ: عَلَى أَنْ يَعْمَلَ بِطَاعَتِهِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: فَقُمْ مَخْصُوماً. فَقَامَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾»(١).

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٤٧.

٢- وكان قتادة من أبرز فقهاء البصرة ولكنه كان يتشوق إلى رؤية الإمام الباقر عليه السلام ومناظرته، حيث كانت المدينة المنورة حاضرة الفقه والتفسير وسائر المعارف الإلهية، ولذلك فقد انتشر علم الإمام إلى كل الآفاق.

من هنا جاء قتادة إلى المدينة يسأل عن الإمام فلما رآه قال له الإمام: «**أَنْتَ فَقِيهُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ؟** قَالَ نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: **وَيْحَكَ يَا قَتَادَةُ! إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقاً مِنْ خَلْقِهِ فَجَعَلَهُمْ حُجَجاً عَلَى خَلْقِهِ، وَهُمْ أَوْتَادٌ فِي أَرْضِهِ، قُوَّامٌ بِأَمْرِهِ، نُجَبَاءُ فِي عِلْمِهِ، اصْطَفَاهُمْ قَبْلَ خَلْقِهِ أَظِلَّةً عَنْ يَمِينِ عَرْشِهِ.**

قَالَ: فَسَكَتَ قَتَادَةُ طَوِيلاً ثُمَّ قَالَ: أَصْلَحَكَ اللهُ وَاللهِ لَقَدْ جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيِ الْفُقَهَاءِ وَقُدَّامَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَمَا اضْطَرَبَ قَلْبِي قُدَّامَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا اضْطَرَبَ قُدَّامَكَ.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: **أَتَدْرِي أَيْنَ أَنْتَ؟ بَيْنَ يَدَيْ ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ فَأَنْتَ ثَمَّ، وَنَحْنُ أُولَئِكَ.**

فَقَالَ قَتَادَةُ: صَدَقْتَ وَاللهِ، جَعَلَنِيَ اللهُ فِدَاكَ، وَاللهِ مَا هِيَ بُيُوتُ حِجَارَةٍ وَلَا طِينٍ.

قَالَ قَتَادَةُ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْجُبُنِّ.

فَتَبَسَّمَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام وَقَالَ: **رَجَعَتْ مَسَائِلُكَ إِلَى هَذَا.**

قَالَ: ضَلَّتْ عَنِّي.

فقال: لَا بَأْسَ بِهِ.

فقال: إِنَّهُ رُبَّمَا جُعِلَتْ فِيهِ إِنْفَحَةُ الْمَيِّتِ.

قال: لَيْسَ بِهَا بَأْسٌ، إِنَّ الْإِنْفَحَةَ لَيْسَتْ لَهَا عُرُوقٌ وَلَا فِيهَا دَمٌ وَلَا لَهَا عَظْمٌ إِنَّمَا تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ.

ثُمَّ قال: وَإِنَّمَا الْإِنْفَحَةُ بِمَنْزِلَةِ دَجَاجَةٍ مَيْتَةٍ خَرَجَتْ مِنْهَا بَيْضَةٌ فَهَلْ تَأْكُلُ تِلْكَ الْبَيْضَةَ؟

فقال قتادة: لَا، وَلَا آمُرُ بِأَكْلِهَا.

فقال له أبو جعفر عليه السلام: وَلِمَ؟

قال: لِأَنَّهَا مِنَ الْمَيْتَةِ.

قال له: فَإِنْ حُضِنَتْ تِلْكَ الْبَيْضَةُ فَخَرَجَتْ مِنْهَا دَجَاجَةٌ أَتَأْكُلُهَا؟

قال: نعم.

قال: فَمَا حَرَّمَ عَلَيْكَ الْبَيْضَةَ وَأَحَلَّ لَكَ الدَّجَاجَةَ.

ثُمَّ قال: فَكَذَلِكَ الْإِنْفَحَةُ مِثْلُ الْبَيْضَةِ، فَاشْتَرِ الْجُبْنَ مِنْ أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَيْدِي الْمُصَلِّينَ وَلَا تَسْأَلْ عَنْهُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَكَ مَنْ يُخْبِرُكَ عَنْهُ"[1].

٣- وقد بثَّ الإمام من علمه بين الناس حتى سُمّي باقراً، فقد جاء في لسان العرب: تبقَّر في العلم: توسَّع، ومنه سُمّي أبو جعفر الباقر عليه السلام لأنه بقر العلم وشقه وفتحه[2].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٤٧.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مادة: بقر.

وقال ابن حجر في صواعقه المحرقة: سُمِّي بذلك مَنْ بَقَرَ الأرض أي شَقَّهَا وأَثَارَ مُخَبَّآتها ومكامنها، فكذلك هو أظهرَ من مخبات كنوز المعارف، وحقائق الأحكام والحكم واللطائف؛ ما لا يخفى إلّا على منطمس البصيرة أو فاسد الطوية والسريرة، ومن ثم قيل فيه: هو باقر العلم وجامعه وشاهر علمه ورافعه[1].

وقد أفاض الإمام على المسلمين من علمه عبر تربيته لطائفة عظيمة من الفقهاء والمفسرين وحكماء المعارف الإلهية، من أمثال جابر بن يزيد الجعفي، ومحمد بن مسلم، وأبان بن تغلب، ومحمد بن إسماعيل بن بزيع، وأبو بصير الأسدي، والفضيل بن يسار وآخرين.

كما أنه نشر العلم عبر من روى عنه من علماء عصره من أمثال: ابن المبارك، والزهري، والأوزاعي، وأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وزياد بن المنذر النهدي. ومن المصنفين: الطبري، والبلاذري، والسلامي، والخطيب وغيرهم[2].

وكان الولاة يجأرون إلى آهل بيت الرحمة كلما دهمتهم داهمة، وبالرغم من الصراع الحاد القائم بين الطرفين لم يدّخر الأئمة عليهم السلام وسعاً في خدمة الإسلام وإنقاذ الأمة من الأخطار المحيطة بها.

من ذلك ما ينقل لنا التاريخ من ورطة وقع فيها الخليفة الأموي عبد الملك حسبما ذكره إبراهيم بن محمد البيهقي في كتابه المحاسن والمساوئ، حيث نقل عن الكسائي أنه قال:

---

(١) الصواعق المحرقة، ابن حجر، طبعة أحمد البابي - حلب، ص ١٢٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٦، ص٢٩٤.

«دخلت على الرشيد ذات يوم وهو في إيوانه وبين يديه مال كثير قد تشق عنه البِدَرُ شقًا، وأمر بتفريقه في خدم الخاصة وبيده درهم تلوح كتابته وهو يتأمله، وكان كثيراً ما يحدثني، فقال: هل علمت أول من سَنَّ هذه الكتابة في الذهب والفضة؟

قلت: يا سيدي! هو عبد الملك بن مروان!

قال: فما كان السبب في ذلك؟

قلت: لا علم لي غير أنه أول من أحدث هذه الكتابة!

فقال: سأخبرك: كانت القراطيس للروم وكان أكثر من بمصر نصرانيًا على دين ملك الروم وكانت تطرز بالرومية، وكان طرازها أباً وابناً وروحاً قديساً، فلم يزل ذلك كذلك وصدر الإسلام كله يمضي على ما كان عليه إلى أن ملك عبد الملك فتنبه له وكان فطناً، فبينا هو ذات يوم إذ مر به قرطاس فنظر إلى طرازه فأمر أن يُترجم إلى العربية ففعل ذلك، فأنكره وقال: ما أغلظ هذا في الدين والإسلام، أن يكون طراز القراطيس بمصر وهي تحمل في الأواني والثياب، فتدور في الآفاق والبلاد وقد طُرِّزَتْ بشرك مثبت عليها، فأمر بالكتاب إلى عبد العزيز بن مروان وكان عامله بمصر بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك، وأن يأمر صُنّاع القراطيس بأن يطرزوها بسورة التوحيد و ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[1]، وهذا طراز القراطيس خاصة إلى هذا الوقت لم ينقص ولم يزد ولم يتغير، وكتب إلى عمال الآفاق جميعاً بإبطال ما في أعمالهم من القراطيس المطرزة

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

بطراز الروم ومعاقبة من وُجِدَ عنده بعد هذا النهي شيء منها بالضرب الوجيع والحبس الطويل، فلما أثبتت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد وحملت إلى بلاد الروم، انتشر خبرها ووصل إلى ملكهم، فترجم له ذلك الطراز فأنكره وغلظ عليه واستشاط غضباً فكتب إلى عبد الملك: إنَّ عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم، ولم يزل يطرز بطراز الروم إلى أن أبطلته، فإن كان من تقدمَك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وإن كنت قد أصبت فقد أخطؤوا، فاختر من هاتين الحالتين أيهما شئت وأحببت، وقد بعثت إليك بهدية تشبه محلك وأحببت أن تجعل رد ذلك الطراز إلى ما كان عليه في جميع ما كان يطرز من أصناف الأعلاق، حاجة أشكرك عليها وتأمر بقبض الهدية وكانت عظيمة القدر، فلما قرأ عبد الملك كتابه رد الرسول وأعلمه أن لا جواب له ولم يقبل الهدية، فانصرف بها إلى صاحبه فلما وافاه أضعف الهدية ورد الرسول إلى عبد الملك وقال: إني ظننتك استقللت الهدية فلم تقبلها ولم تجبني عن كتابي، فأضعفت لك الهدية وأنا أرغب إليك في مثل ما رغبت فيه من رد هذا الطراز إلى ما كان عليه أولاً، فقرأ عبدالملك الكتاب ولم يجبه ورد الهدية، فكتب إليه ملك الروم يقتضي أجوبة كتبه ويقول: إنك قد استخففت بجوابي وهديتي ولم تُسعفني بحاجتي فتوهمتك استقللت الهدية فأضعفتها فجريت على سبيلك الأول وقد أضعفتها ثالثة، وأنا أحلف بالمسيح لتأمرن برد الطراز إلى ما كان عليه أو لآمرن بنقش الدنانير والدراهم، فإنك تعلم أنه لا ينقش شيء منها إلّا ما يُنقش في بلادي، ولم تكن الدراهم والدنانير نقشت في الإسلام فينقش عليها من شتم نبيك ما إذا قرأته ارْفَضّ جبينك له عرقاً، فأُحبُّ أن تقبل هديتي، وترد الطراز إلى ما كان عليه، وتجعل ذلك هدية بررتني بها وتبقى على

الحال بيني وبينك، فلما قرأ عبد الملك الكتاب غلظ عليه وضاقت به الأرض، وقال: أحسبني أشأم مولود ولد في الإسلام لأني جنيت على رسول الله صلى الله عليه وآله من شتم هذا الكافر ما يبقى غابراً ولا يمكن محوه من جميع مملكة العرب، إذ كانت المعاملات تدور بين الناس بدنانير الروم ودراهمهم، فجمع أهل الإسلام واستشارهم فلم يجد عند أحد منهم رأياً يعمل به.

فقال له روح بن زنباع: إنك لتعلم الرأي والمخرج من هذا الأمر ولكنك تتعمد تركه

قال: ويحك! من؟

قال: الباقر من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله.

قال: صدقت ولكن أُرتج عليّ الرأي فيه، فكتب إلى عامله بالمدينة أن أشْخص إليّ محمد بن علي بن الحسين مكرّماً ومتّعه بمائتي ألف درهم لجهازه وبثلاثمائة ألف درهم لنفقته، وأزح علته في جهازه من يخرج معه من أصحابه، واحتبس الرسول قبله إلى موافاته عليه، فلما وافى أخبره الخبر، فقال له الباقر عليه السلام:

«لَا يَعْظُمُ هَذَا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ مِنْ جِهَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَكُنْ لِيُطْلِقَ مَا يُهَدِّدُ بِهِ صَاحِبُ الرُّومِ فِي رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله.

وَالْأُخْرَى: وُجُودُ الْحِيلَةِ فيه».

فَقَالَ: وَمَا هِيَ؟

قال عليه السلام: «تَدْعُو هَذِهِ السَّاعَةَ بِصُنَّاعٍ فَيَضْرِبُونَ بَيْنَ يَدَيْكَ سِكَكاً لِلدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ وَتَجْعَلُ النَّقْشَ عَلَيْهَا سُورَةَ التَّوْحِيدِ وَذِكْرَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله أَحَدُهُمَا فِي وَجْهِ الدِّرْهَمِ وَالدِّينَارِ وَالْآخَرَ فِي الْوَجْهِ الثَّانِي، وَتَجْعَلُ فِي مَدَارِ الدِّرْهَمِ وَالدِّينَارِ ذِكْرَ الْبَلَدِ الَّذِي يُضْرَبُ فِيهِ وَالسَّنَةِ الَّتِي يُضْرَبُ فِيهَا تِلْكَ الدَّرَاهِمُ وَالدَّنَانِيرُ، وَتَعْمِدُ إِلَى وَزْنِ ثَلَاثِينَ دِرْهَماً عَدَداً مِنَ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي الْعَشَرَةُ مِنْهَا وَزْنُ عَشَرَةِ مَثَاقِيلَ، وَعَشَرَةٌ مِنْهَا وَزْنُ سِتَّةِ مَثَاقِيلَ، وَعَشَرَةٌ مِنْهَا وَزْنُ خَمْسَةِ مَثَاقِيلَ، فَتَكُونُ أَوْزَانُهَا جَمِيعاً وَاحِداً وَعِشْرِينَ مِثْقَالاً فَتُجَزِّئُهَا مِنَ الثَّلَاثِينَ فَتَصِيرُ الْعِدَّةُ مِنَ الْجَمِيعِ وَزْنَ سَبْعَةِ مَثَاقِيلَ، وَتَصُبُّ صَنَجَاتٍ مِنْ قَوَارِيرَ لَا يَسْتَحِيلُ إِلَى زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ، فَتَضْرِبُ الدَّرَاهِمُ عَلَى وَزْنِ عَشَرَةٍ وَالدَّنَانِيرُ عَلَى وَزْنِ سَبْعَةِ مَثَاقِيلَ، وَكَانَتِ الدَّرَاهِمُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِنَّمَا هِيَ الْكِسْرَوِيَّةُ الَّتِي يُقَالُ لَهَا الْيَوْمَ بَغْلِيَّةٌ لِأَنَّ رَأْسَ الْبَغْلِ ضَرَبَهَا لِعُمَرَ بِسِكَّةٍ كِسْرَوِيَّةٍ فِي الْإِسْلَامِ، مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا صُورَةُ الْمَلِكِ وَتَحْتَ الْكُرْسِيِّ مَكْتُوبٌ بِالْفَارِسِيَّةِ: نُوشْ خُورْ، أَيْ كُلْ هَنِيئاً. وَكَانَ وَزْنُ الدِّرْهَمِ مِنْهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ مِثْقَالاً، وَالدَّرَاهِمُ الَّتِي كَانَ وَزْنُ الْعَشَرَةِ مِنْهَا سِتَّةَ مَثَاقِيلَ هِيَ السُّمْرِيَّةُ الْخِفَافُ وَنَقْشُهَا نَقْشُ فَارِسَ».

ففعل عبد الملك ذلك وأمره محمد بن علي بن الحسين أن يكتب السكك في جميع بلدان الإسلام، وأن يتقدم إلى الناس في التعامل بها، وأن يتهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكك من الدراهم والدنانير وغيرها، وأن تبطل وترد إلى مواضع العمل حتى تعاد إلى السكك الإسلامية. ففعل عبد الملك ذلك، وورد رسول ملك الروم إليه يُعلمه بذلك، ويقول: إن الله عزّ وجلّ مانعك مما قدرت أن تفعله، وقد أقدمت إلى عمالي في أقطار البلاد بكذا وكذا وبإبطال السكك والطراز

الرومية، فقيل لملك الروم: افعل ما كنت تهددت به ملك العرب، فقال: إنما أردت أن أغيظه بما كتبت إليه؛ لأني كنت قادراً عليه والمال وغيره برسوم الروم، فأما الآن فلا أفعل؛ لأن ذلك لا يتعامل به أهل الإسلام وممتنع من الذي قال. وثبت ما أشار به محمد بن علي بن الحسين إلى اليوم. ثم رمى، يعني الرشيد، بالدرهم إلى بعض الخدم»[1].

إن العلم الإلهي الذي حباه به الرب بما أخلص له في الطاعة، واجتهد في سبيله بالدعاء والعمل، إنه كان وراء إرشاده إلى السبيل الأفضل لمواجهة تهديد ملك الروم.

وهذا العلم كان يُميّز الإمام الحق ممَّنْ ادَّعوا هذا المقام بغير حق، سواء الولاة الظالمون أو العلويون الذين نازعوا الأئمة حقهم.

وهكذا نجد في تاريخ أهل البيت عليهم السلام كيف كان يقول شيعتهم عليهم بما لديهم من علم الدين والعلم بالحقائق الخفية بإذن الله، وبالتوسم بنور الله وبتأييد ملائكة الله.

وفيما يلي ننقل بعض الأحاديث التي تزيدنا معرفة بمقام الإمامة عموماً، وبدرجات الإمام الباقر عليه السلام بالذات.

فقد روى الحلبي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «دَخَلَ النَّاسُ عَلَى أَبِي (الإمام الباقر) قَالُوا: مَا حَدُّ الْإِمَامِ؟ قَالَ: **حَدُّهُ عَظِيمٌ، إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَيْهِ فَوَقِّرُوهُ وَعَظِّمُوهُ وَآمِنُوا بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَهْدِيَكُمْ. وَفِيهِ خَصْلَةٌ إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَيْهِ لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَمْلَأَ عَيْنَهُ مِنْهُ إِجْلَالًا وَهَيْبَةً؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله كَذَلِكَ كَانَ وَكَذَلِكَ يَكُونُ الْإِمَامُ.**

(١) مستدرك الوسائل، ج٧، ص ٨٥ - ٨٦.

قَالَ: فَيَعْرِفُ شِيعَتَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ سَاعَةَ يَرَاهُمْ. قَالُوا: فَنَحْنُ لَكَ شِيعَةٌ، قَالَ: نَعَمْ كُلُّكُمْ؟ قَالُوا: أَخْبِرْنَا بِعَلامَةِ ذَلِكَ. قَالَ: أُخْبِرُكُمْ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ وَقَبَائِلِكُمْ، قَالُوا: أَخْبِرْنَا، فَأَخْبَرَهُمْ، قَالُوا: صَدَقْتَ. قَالَ: وَأُخْبِرُكُمْ عَمَّا أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْأَلُوا عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾(١) نَحْنُ نُعْطِي شِيعَتَنَا مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِلْمِنَا. ثُمَّ قَالَ: يُقْنِعُكُمْ؟ قَالُوا: فِي دُونِ هَذَا نَقْنَع»(٢).

وينقل عبد الله بن معاوية الجعفري قصته مع والي المدينة، الذي بعث عبره برسالة تهديد إلى الإمام الباقر عليه السلام، فلم يأبه بها الإمام لأن الله أطلعه على أنه معزول قريباً، يقول: «سَأُحَدِّثُكُمْ بِمَا سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَرَأَتْهُ عَيْنَايَ مِنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: أَنَّهُ كَانَ عَلَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ مِنْ آلِ مَرْوَانَ، وَأَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيَّ يَوْماً فَأَتَيْتُهُ وَمَا عِنْدَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فَقَالَ: يَا مُعَاوِيَةُ! إِنَّمَا دَعَوْتُكَ لِثِقَتِي بِكَ وَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لا يُبْلِغُ عَنِّي غَيْرُكَ، فأجبت [فَأَحْبَبْتُ] أَنْ تَلْقَى عَمَّيْكَ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ وَزَيْدَ بْنَ الْحَسَنِ عليهما السلام وَتَقُولَ لَهُمَا: يَقُولُ لَكُمَا الأَمِيرُ: لَتَكُفَّانِ عَمَّا يَبْلُغُنِي عَنْكُمَا أَوْ لَتُنْكَرَانِ. فَخَرَجْتُ مُتَوَجِّهاً إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ فَاسْتَقْبَلْتُهُ مُتَوَجِّهاً إِلَى الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ تَبَسَّمَ ضَاحِكاً فَقَالَ: بَعَثَ إِلَيْكَ هَذَا الطَّاغِيَةُ وَدَعَاكَ وَقَالَ: الْقَ عَمَّيْكَ فَقُلْ لَهُمَا كَذَا.

فَقَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو جَعْفَرٍ بِمَقَالَتِهِ كَأَنَّهُ كَانَ حَاضِراً، ثُمَّ قَالَ: يَا بْنَ عَمِّ! قَدْ كُفِينَا أَمْرَهُ بَعْدَ غَدٍ فَإِنَّهُ مَعْزُولٌ وَمَنْفِيٌّ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ، وَاللهِ مَا أَنَا بِسَاحِرٍ وَلَا كَاهِنٍ وَلَكِنِّي أُتِيتُ وَحُدِّثْتُ.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٤٤.

قَالَ: فَوَاللهِ مَا أَتَى عَلَيْهِ الْيَوْمُ الثَّانِي حَتَّى وَرَدَ عَلَيْهِ عَزْلُهُ وَنَفْيُهُ إِلَى مِصْرَ وَوَلِيَ الْمَدِينَةَ غَيْرُهُ»[1].

أما أبو بصير الذي كان من خواص الإمام فإنه يروي قصته مع الإمام وكيف كان عليه السلام يراقبه ويؤدبه، يقول: «كُنْتُ أُقْرِئُ امْرَأَةً الْقُرْآنَ بِالْكُوفَةِ فَمَازَحْتُهَا بِشَيْءٍ، فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام عَاتَبَنِي وَقَالَ: **مَنِ ارْتَكَبَ الذَّنْبَ فِي الْخَلَاءِ لَمْ يَعْبَأِ اللهُ بِهِ، أَيَّ شَيْءٍ قُلْتَ لِلْمَرْأَةِ؟** فَغَطَّيْتُ وَجْهِي حَيَاءً وَتُبْتُ، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: **لَا تَعُدْ**»[2].

ويروي أبو بصير أيضاً كيف أخبر الإمام عن ملك بني العباس قبل سنين من توليهم السلطة فيقول: «كُنْتُ مَعَ الْبَاقِرِ عليه السلام فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله قَاعِداً حِدْثَانَ مَا مَاتَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام إِذْ دَخَلَ الدَّوَانِيقِيُّ وَدَاوُدُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَبْلَ أَنْ أُفْضِيَ الْمُلْكُ إِلَى وُلْدِ الْعَبَّاسِ وَمَا قَعَدَ إِلَى الْبَاقِرِ إِلَّا دَاوُدُ، فَقَالَ الْبَاقِرُ عليه السلام: **مَا مَنَعَ الدَّوَانِيقِيَّ أَنْ يَأْتِيَ؟**

قَالَ: فِيهِ جَفَاءٌ.

قَالَ الْبَاقِرُ عليه السلام: **لَا تَذْهَبُ الْأَيَّامُ حَتَّى يَلِيَ أَمْرَ هَذَا الْخَلْقِ وَيَطَأَ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ وَيَمْلِكَ شَرْقَهَا وَغَرْبَهَا وَيَطُولُ عُمْرُهُ فِيهَا حَتَّى يَجْمَعَ مِنْ كُنُوزِ الْأَمْوَالِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لِأَحَدٍ قَبْلَهُ.**

فَقَامَ دَاوُدُ وَأَخْبَرَ الدَّوَانِيقِيَّ بِذَلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ الدَّوَانِيقِيُّ وَقَالَ: مَا مَنَعَنِي مِنَ الْجُلُوسِ إِلَيْكَ إِلَّا إِجْلَالُكَ، فَمَا الَّذِي خَبَّرَنِي بِهِ دَاوُدُ؟

فَقَالَ: **هُوَ كَائِنٌ.**

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٤٦.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٤٧.

قَالَ: وَمُلْكُنَا قَبْلَ مُلْكِكُمْ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: يَمْلِكُ بَعْدِي أَحَدٌ مِنْ وُلْدِي؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَمُدَّةُ بَنِي أُمَيَّةَ أَكْثَرُ أَمْ مُدَّتُنَا؟

قَالَ: مُدَّتُكُمْ أَطْوَلُ، وَلَيَتَلَقَّفَنَّ هَذَا الْمُلْكَ صِبْيَانُكُمْ وَيَلْعَبُونَ بِهِ كَمَا يَلْعَبُونَ بِالْكُرَةِ. هَذَا مَا عَهِدَهُ إِلَيَّ أَبِي.

فَلَمَّا مَلَكَ الدَّوَانِيقِيُّ تَعَجَّبَ مِنْ قَوْلِ الْبَاقِرِ عليه السلام»[1].

خصال الإمام:

لا يختار الله عبداً لمقام الإمامة، ويجعله حجة بالغة على خلقه إلّا إذا اكتملت فيه الخصال الجيدة، وكان مثالاً لما أقر به سبحانه في كتابه من خشية الله وتوقيره، وتعظيمه وتجليله، وإخلاص العبودية له، والتي تتجلى في جملة أقواله وأفعاله، فلا يقول إلّا صواباً ولا يعمل إلّا رشداً.

وإذا كنا ننقل بعض خصال الإمام الباقر عليه السلام الحميدة، أو خصال أحد المعصومين عليهم السلام، فلكي نأتي بالشواهد الواضحة التي تدلنا على أمثالها، وليس لأننا نريد أن نختصر كل حياة الإمام فيها، أو أن نُحصي فضائله وخصاله الحميدة، كلا.. لأننا نعرف سلفاً أن حياتهم كانت صورة واقعية عن القرآن الكريم، بيد أن ما بلغنا منها لم يكن مستوعباً لجوانب حياتهم، لأن جانباً منها انبهر به المؤرخون فأكثروا

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٤٩.

فيه الحديث واكتفوا بقياس سائر الجوانب عليه، فمثلاً ذكروا من حياة الإمام السجاد جانب العبادة، ولم يتحدثوا كثيراً عن جانب العلم، في حين عكسوا الأمر فيما يتصل بحياة الإمام الباقر عليه السلام.

وهكذا نكتفي ببعض الإشراقات التي وصلت إلينا من حياة الإمام ونترك للقارئ أن يقيس سائر أبعاد حياته عليها.

قال ابن شهراشوب في المناقب: «كَانَ أَصْدَقَ النَّاسِ لَهْجَةً وَأَحْسَنَهُمْ بَهْجَةً وَأَبْذَلَهُمْ مُهْجَةً، وَكَانَ أَقَلَّ أَهْلِ بَيْتِهِ مَالاً وَأَعْظَمَهُمْ مَؤُونَةً.

قَالَ: وَكَانَ يَتَصَدَّقُ كُلَّ جُمُعَةٍ بِدِينَارٍ. وَكَانَ يَقُولُ: **الصَّدَقَةُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ تُضَاعَفُ لِفَضْلِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَيَّامِ**. وَكَانَ إِذَا أَحْزَنَهُ أَمْرٌ جَمَعَ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ ثُمَّ دَعَا وَأَمَّنُوا، وَكَانَ كَثِيرَ الذِّكْرِ، كان يمشي وَإِنَّهُ لَيَذْكُرُ الله ويأكل الطَّعَامَ وَإِنَّهُ لَيَذْكُرُ الله، وَلَقَدْ كَانَ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ وَمَا يَشْغَلُهُ ذَلِكَ عَنْ ذِكْرِ الله، وَكَانَ يَجْمَعُ ولده فَيَأْمُرُهُم بِالذِّكْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، وَيَأْمُرُ بِالْقِرَاءَةِ مَنْ كَانَ يَقْرَأُ مِنَّا، وَمَنْ كَانَ لَا يَقْرَأُ مِنَّا أَمَرَهُ بِالذِّكْرِ.

ويأتي قول المفيد: وكان ظاهر الجود في الخاصة والعامة مشهور الكرم في الكافة، معروفاً بالتفضل والإحسان مع كثرة عياله وتوسط حاله.

ويأتي عن سليمان بن دمدم: أنه عليه السلام كَانَ يُجِيزُ بِالْخَمْسِمِائَةِ إِلَى السِّتِّمِائَةِ إِلَى الْأَلْفِ دِرْهَمٍ، وَكَانَ لَا يَمَلُّ مِنْ صِلَةِ إِخْوَانِهِ وَقَاصِدِيهِ وَمُؤَمِّلِيهِ وَرَاجِيهِ، وَكَانَ إِذَا ضَحِكَ قَالَ: **اللهُمَّ لَا تَمْقُتْنِي**.

وقال الآبي في كتاب نثر الدرر: كان إذا رأى مبتلى أخفى

الاستعاذة، وَكَانَ لَا يُسْمَعُ مِنْ دَارِهِ يَا سَائِلُ بُورِكَ فِيكَ وَلَا يَا سَائِلُ خُذْ هَذَا، وَكَانَ يَقُولُ: **سَمُّوهُمْ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِم**»[1].

وحينما يذكر أبو نعيم في كتابه الحلية الإمام يصفه بهذا النعت: «الْحَاضِرُ الذَّاكِرُ الْخَاشِعُ الصَّابِرُ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْبَاقِرُ»[2].

وكان من شدة خشوعه ما يذكره (أفلح) مولى أبي جعفر أنه قال: «خَرَجْتُ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ حَاجًّا فَلَمَّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ نَظَرَ إِلَى الْبَيْتِ فَبَكَى حَتَّى عَلَا صَوْتُهُ، فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي إِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ فَلَوْ رَفَعْتَ بِصَوْتِكَ قَلِيلاً[3]، فَقَالَ لِي: **وَيْحَكَ يَا أَفْلَحُ! وَلِمَ لَا أَبْكِي لَعَلَّ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَيَّ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ فَأَفُوزَ بِهَا عِنْدَهُ غَداً**، قَالَ: ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْتِ ثُمَّ جَاءَ حَتَّى رَكَعَ عِنْدَ الْمَقَامِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ سُجُودِهِ فَإِذَا مَوْضِعُ سُجُودِهِ مُبْتَلٌّ مِنْ كَثْرَةِ دُمُوعِ عَيْنَيْهِ. وَكَانَ إِذَا ضَحِكَ قَالَ: **اللَّهُمَّ لَا تَمْقُتْنِي**»[4].

ويقول نجله الإمام الصادق عليه السلام وهو يصف تبتل والده إلى الله: «**كَانَ أَبِي كَثِيرَ الذِّكْرِ. لَقَدْ كُنْتُ أَمْشِي مَعَهُ وَإِنَّهُ لَيَذْكُرُ اللهَ، وَآكُلُ مَعَهُ الطَّعَامَ وَإِنَّهُ لَيَذْكُرُ اللهَ، وَلَوْ كَانَ يُحَدِّثُ لِقَوْمٍ مَا يَشْغَلُهُ ذَلِكَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، وَكُنْتُ أَرَى لِسَانَهُ لَاصِقاً بِحَنَكِهِ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَكَانَ يَجْمَعُنَا فَيَأْمُرُنَا بِالذِّكْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، وَكَانَ يَأْمُرُ بِالْقِرَاءَةِ مَنْ كَانَ يَقْرَأُ مِنَّا، وَمَنْ كَانَ لَا يَقْرَأُ مِنَّا أَمَرَهُ بِالذِّكْرِ**»[5].

(١) في رحاب أئمة أهل البيت سيرة الباقر: (ص ٦).
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٨٩، نقلا عن حلية الأولياء، ج ٣ ص ١٨٠.
(٣) الظاهر خفضت والله العالم.
(٤) بحار الأنوار، ج ٤٦،ص ٢٩٠.
(٥) بحار الأنوار، ج ٤٦،ص ٢٩٧.

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنِّي كُنْتُ أُمَهِّدُ لِأَبِي فِرَاشَهُ فَأَنْتَظِرُهُ حَتَّى يَأْتِيَ فَإِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ وَنَامَ قُمْتُ إِلَى فِرَاشِي، وَإِنَّهُ أَبْطَأَ عَلَيَّ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَأَتَيْتُ الْمَسْجِدَ فِي طَلَبِهِ وَذَلِكَ بَعْدَمَا هَدَأَ النَّاسُ فَإِذَا هُوَ فِي الْمَسْجِدِ سَاجِدٌ وَلَيْسَ فِي الْمَسْجِدِ غَيْرُهُ، فَسَمِعْتُ حَنِينَهُ وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي حَقّاً حَقّاً، سَجَدْتُ لَكَ يَا رَبِّ تَعَبُّداً وَرِقّاً، اللَّهُمَّ إِنَّ عَمَلِي ضَعِيفٌ فَضَاعِفْهُ لِي، اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ، وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»(١).

وكان عليه السلام شديد الحب لكتاب ربه، عظيم الاهتمام به والتأثر بآياته، حتى أن أَبَانَ بْنَ مَيْمُونٍ الْقَدَّاحِ قَالَ: قَالَ لِي أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: اقْرَأْ. قُلْتُ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ أَقْرَأُ؟. قَالَ: مِنَ السُّورَةِ التَّاسِعَةِ، قَالَ: فَجَعَلْتُ أَلْتَمِسُهَا، فَقَالَ: اقْرَأْ مِنْ سُورَةِ يُونُسَ، فَقَالَ: قَرَأْتُ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾(٢)، قَالَ: حَسْبُكَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: إِنِّي لَأَعْجَبُ كَيْفَ لَا أَشِيبُ إِذَا قَرَأْتُ الْقُرْآنَ»(٣).

وكان يستلهم من كتاب ربه معارف الدين، حتى أنه يدعو الرواة أن يسألوه عن مصدر أقواله من القرآن، هكذا يروي أبو الجارود قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إِذَا حَدَّثْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَاسْأَلُونِي عَنْ كِتَابِ اللهِ. ثُمَّ قَالَ فِي حَدِيثِهِ: إِنَّ اللهَ نَهَى عَنِ الْقِيلِ وَالْقَالِ وَفَسَادِ الْمَالِ وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ. فَقَالُوا: يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ وَأَيْنَ هَذَا مِنْ كِتَابِ اللهِ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾(٤)، وقال: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٠١.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢٦.
(٣) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٠٣.
(٤) سورة النساء، الآية: ١١٤.

جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾[1]، وقال: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[2]»[3].

وإذا سُئِلَ عن حاله استغل السؤال لتذكير نفسه والسائل بالله، فقد رُوي أنه قِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَاقِرِ عليه السلام: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ قَالَ: «**أَصْبَحْنَا غَرْقَى فِي النِّعْمَةِ، مَوْفُورِينَ بِالذُّنُوبِ، يَتَحَبَّبُ إِلَيْنَا إِلَهُنَا بِالنِّعَمِ وَنَتَمَقَّتُ إِلَيْهِ بِالمَعَاصِي، وَنَحْنُ نَفْتَقِرُ إِلَيْهِ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنَّا**»[4].

وكان عليه السلام شديد التسليم لأمر الله؛ فقد روى بعض أصحابه أنه قال: كَانَ قَوْمٌ أَتَوْا أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام: فَوَافَقُوا صَبِيًّا لَهُ مَرِيضاً فَرَأَوْا مِنْهُ اهْتِمَاماً وَغَمّاً وَجَعَلَ لَا يَقِرُّ، (قَالَ) فَقَالُوا: وَاللهِ لَئِنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ إِنَّا لَنَتَخَوَّفُ أَنْ نَرَى مِنْهُ مَا نَكْرَهُ، قَالَ: فَمَا لَبِثُوا أَنْ سَمِعُوا الصِّيَاحَ عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ مُنْبَسِطَ الْوَجْهِ فِي غَيْرِ الْحَالِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، فَقَالُوا لَهُ: جَعَلَنَا اللهُ فِدَاكَ! لَقَدْ كُنَّا نَخَافُ مِمَّا نَرَى مِنْكَ أَنْ لَوْ وَقَعَ أَنْ نَرَى مِنْكَ مَا يَغُمُّنَا، فَقَالَ لَهُمْ: **إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ نُعَافَى فِيمَنْ نُحِبُّ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ سَلَّمْنَا فِيمَا يُحِبُّ**»[5].

وكان عليه السلام لا يلويه عن العمل الصالح شيء. وفي ذلك رواية طريفة ينقلها بعض أصحابه حيث يقول: «حَضَرَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام جِنَازَةَ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَنَا مَعَهُ، وَكَانَ فِيهَا عَطَاءٌ فَصَرَخَتْ صَارِخَةٌ، فَقَالَ: عَطَاءٌ لَتَسْكُتِنَّ أَوْ لَنَرْجِعَنَّ، قَالَ: فَلَمْ تَسْكُتْ؟ فَرَجَعَ عَطَاءٌ. قَالَ: فَقُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: إِنَّ عَطَاءً قَدْ رَجَعَ، قَالَ: وَلِمَ؟ قُلْتُ: صَرَخَتْ

(١) سورة النساء، الآية: ٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠١.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٠٣.

(٤) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٠٤.

(٥) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٠١.

هَـذِهِ الصَّارِخَةُ فَقَـالَ لَهَا: لَتَسْـكُتِنَّ أَوْ لَنَرْجِعَـنَّ، فَلَمْ تَسْـكُتْ، فَرَجَعَ، فَقَالَ: **امْضِ بِنَا، فَلَوْ أَنَّا إِذَا رَأَيْنَا شَـيْئاً مِنَ الْبَاطِلِ مَعَ الْحَقِّ تَرَكْنَا لَهُ الْحَقَّ لَمْ نَقْضِ حَقَّ مُسْلِمٍ**. قَالَ: فَلَمَّا صَلَّى عَـلَى الْجِنَازَةِ، قَالَ وَلِيُّهَا لِأَبِي جَعْفَرٍ: ارْجِـعْ مَأْجُـوراً رَحِمَكَ اللهُ؛ فَإِنَّـكَ لَا تَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ. فَأَبَـى أَنْ يَرْجِعَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الرُّجُوعِ وَلِي حَاجَةٌ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهَا؟ فَقَالَ: **امْضِ فَلَيْسَ بِإِذْنِهِ جِئْنَا وَلَا بِإِذْنِهِ نَرْجِعُ، إِنَّمَا هُوَ فَضْلٌ وَأَجْرٌ طَلَبْنَاهُ، فَبِقَدْرِ مَا يَتْبَعُ الْجِنَازَةَ الرَّجُلُ يُؤْجَرُ عَلَى ذَلِكَ**»(1).

أمـا معاشرتـه لإخوانه فقد كانـت غايـة في الأدب، فمثلاً يحكي أبـو عبيـدة عن آداب عشرته في السـفر فيقـول: «كُنْتُ زَمِيـلَ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام، وَكُنْتُ أَبْدَأُ بِالرُّكُوبِ ثُمَّ يَرْكَبُ هُوَ، فَإِذَا اسْـتَوَيْنَا سَـلَّمَ وَسَـاءَلَ مُسَـاءَلَةَ رَجُلٍ لَا عَهْدَ لَهُ بِصَاحِبِهِ وَصَافَحَ. قَالَ: وَكَانَ إِذَا نَزَلَ نَزَلَ قَبْلِي فَإِذَا اسْـتَوَيْتُ أَنَا وَهُوَ عَلَى الْأَرْضِ سَـلَّمَ وَسَـاءَلَ مُسَاءَلَةَ مَنْ لَا عَهْدَ لَهُ بِصَاحِبِهِ، فَقُلْتُ: يَا بْنَ رَسُـولِ اللهِ! إِنَّكَ لَتَفْعَلُ شَـيْئاً مَـا يَفْعَلُهُ مَنْ قِبَلَنَا وَإِنْ فَعَلَ مَرَّةً لَكَثِيرٌ، فَقَالَ:

أَمَـا عَلِمْتَ مَا فِي الْمُصَافَحَةِ، إِنَّ الْمُؤْمِنَـيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيُصَافِحُ أَحَدُهُمَا صَاحِبَـهُ فَمَا تَزَالُ الذُّنُوبُ تَتَحَـاتُّ عَنْهُمَا كَمَا يَتَحَاتُّ الْوَرَقُ عَنِ الشَّـجَرِ وَاللهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا حَتَّى يَفْتَرِقَانِ»(2).

وكان في تعاملـه مع الناس برّاً عفيفاً، وكان يعفو عن السـيئة أنّى استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكان لذلك أطيب الأثر في نفوس الناس، فقد قـالَ لَهُ نَصْرَانِيٌّ يوماً: أَنْتَ بَقَرٌ، قَالَ: **لَا، أَنَا بَاقِرٌ**. قَالَ: أَنْتَ ابْنُ الطَّبَّاخَةِ

(1) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٠١.
(2) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٠٢.

(يريد تعييره بها)، قال: ذَاكَ حِرْفَتُهَا. قال: أَنْتَ ابْنُ السَّوْدَاءِ الزَّنْجِيَّةِ الْبَذِيَّةِ. قال: إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ غَفَرَ اللهُ لَهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ غَفَرَ اللهُ لَكَ. فانبهر النصراني بأخلاقه، ودعاه ذلك إلى الإسلام على يديه»[1].

وقد كان تعامله مع المستضعفين يتميّز بالشفقة والرّفق، وقد رُوي عن نجله الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِذَا اسْتَعْمَلْتُمْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فِي شَيْءٍ فَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ فَاعْمَلُوا مَعَهُمْ فِيهِ. قَالَ: وَإِنْ كَانَ أَبِي لَيَأْمُرُهُمْ فَيَقُولُ: كَمَا أَنْتُمْ، فَيَأْتِي فَيَنْظُرُ فَإِنْ كَانَ ثَقِيلاً قَالَ: بِسْمِ اللهِ، ثُمَّ عَمِلَ مَعَهُمْ، وَإِنْ كَانَ خَفِيفاً تَنَحَّى عَنْهُمْ»[2].

وربما كان عمله في إصلاح حقله ومزرعته هذه الجهة، حيث كان الأئمة عليهم السلام يرون الكدح والكد أمراً محبوباً يقربهم إلى الله.

في ذلك يروي أبو عبد الله الصادق: «أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْكَدِرِ كَانَ يَقُولُ: مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ مِثْلَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ يَدَعُ خَلَفاً لِفَضْلِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ حَتَّى رَأَيْتُ ابْنَهُ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِظَهُ فَوَعَظَنِي. فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: بِأَيِّ شَيْءٍ وَعَظَكَ؟ قَالَ: خَرَجْتُ إِلَى بَعْضِ نَوَاحِي الْمَدِينَةِ فِي سَاعَةٍ حَارَّةٍ فَلَقِيتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ وَكَانَ رَجُلاً بَدِيناً وَهُوَ مُتَّكٍ عَلَى غُلامَيْنِ لَهُ أَسْوَدَيْنِ أَوْ مَوْلَيَيْنِ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ قُرَيْشٍ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا أَشْهَدُ لأَعِظَنَّهُ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ بِبُهْرٍ وَقَدْ تَصَبَّبَ عَرَقاً، فَقُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللهُ شَيْخٌ مِنْ أَشْيَاخِ قُرَيْشٍ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا لَوْ جَاءَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ؟ قَالَ: فَخَلَّى عَنِ الْغُلامَيْنِ مِنْ يَدِهِ ثُمَّ تَسَانَدَ وَقَالَ: لَوْ جَاءَنِي وَاللهِ

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٨٩.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٠٣.

الْمَوْتُ وَأَنَا فِي هَذِهِ الْحَالِ جَاءَنِي وَأَنَا فِي طَاعَةٍ مِنْ طَاعَاتِ اللهِ تَعَالَى أَكُفُّ بِهَا نَفْسِي عَنْكَ وَعَنِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا كُنْتُ أَخَافُ الْمَوْتَ لَوْ جَاءَنِي وَأَنَا عَلَى مَعْصِيَةٍ مِنْ مَعَاصِي اللهِ. فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ أَرَدْتُ أَنْ أَعِظَكَ فَوَعَظْتَنِي»[1].

وكان يمكن الإمام أن يستخدم عبيده في أمر إصلاح أرضه، إلّا أنه أحب أن يراه الله كادًّا في سبيل إعاشة عياله.

ونختم حديثنا عن عِشرة الإمام بحديث يرويه الإمام الصادق عليه السلام يقول: «أَعْتَقَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام مِنْ غِلْمَانِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ شِرَارَهُمْ وَأَمْسَكَ خِيَارَهُمْ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ! تُعْتِقُ هَؤُلَاءِ وَتُمْسِكُ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: إِنَّهُمْ قَدْ أَصَابُوا مِنِّي ضَرْباً فَيَكُونُ هَذَا بِهَذَا»[2].

هكذا ضرب الإمام أروع الأمثلة في الخصال الحميدة والآداب الرفيعة، ولا ريب في أن الرواة لم ينقلوا لنا إلّا نزراً يسيراً من جوانب حياته التي تفيض بالحكمة والرشاد. فسلام الله عليه أبداً وصلاته عليه دائماً سرمداً.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٨٧.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٠٠.

الفصل الثّاني

الإمامُ وعصرُهُ

من خلال مراجعة سريعة لعصر الإمام الباقر عليه السلام نعرف أن هدوءاً غاضباً كان يسوده قبل أن تهدر العاصفة الثائرة، التي أطاحت بالحكم الأموي بعد وفاة الإمام الباقر عليه السلام، وحملت إلى الساحة النظام العباسي في عهد الإمام الصادق عليه السلام.

ومن خلال الشواهد التي نستوحيها من قصص حياته عليه السلام تتلمس ملامح ذلك العصر، وكيف أن إرهاصات العاصفة كانت ظاهرة هنا وهناك.

أولاً: الشاهد الأول ظاهرة عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الذي قاد ثورةً إصلاحية من قمة هرمٍ، فمع النجاح الجزئي الذي كسبه هذا الخليفة إلّا أنه لم ينجح لسببين:

الأول: لأنه جاء متأخراً جدّاً إذ إن الفرق الإسلامية التي تبنت معارضة الحكم الأموي كانت راسخة الجذور في الأمة، ولم تكن تنخدع بهذه اللعبة السياسية. وفي طليعتها شيعة أهل البيت عليهم السلام، الذين كان وعيهم بالسياسة إلى درجة لم يكن بإمكان ابن عبد العزيز أو عبدالله المأمون أن يؤثرا فيهم، وذلك بفضل ثقافتهم القرآنية، وتوعية الأئمة بحقائق الإسلام. ومن أبرزها أن الحكم ليس بالوراثة أو القوة، وإنما هو بأمر الدين، فها هو الإمام

الباقر عليه السلام يقول لأصحابه: أن أهل السماء يلعنون عمر بن عبد العزيز، وذلك حتى قبل توليه السلطة. لنستمع إلى الحديث التالي:

روى أبو بصير قال: كُنْتُ مَعَ الْبَاقِرِ عليه السلام فِي الْمَسْجِدِ إِذْ دَخَلَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ، مُتَّكِئاً عَلَى مَوْلًى لَهُ، فَقَالَ عليه السلام:

«لَيَلِيَنَّ هَذَا الْغُلَامُ، فَيُظْهِرُ الْعَدْلَ، وَيَعِيشُ أَرْبَعَ سِنِينَ ثُمَّ يَمُوتُ، فَيَبْكِي عَلَيْهِ أَهْلُ الْأَرْضِ وَيَلْعَنُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: يَجْلِسُ فِي مَجْلِسٍ لَا حَقَّ لَهُ فِيهِ. ثُمَّ مَلَكَ وَأَظْهَرَ الْعَدْلَ جُهْدَهُ»(١).

هكذا يعتبره الإمام ملعوناً لأنه قد جلس في مقام الخلافة الذي لا يحق له الجلوس فيه أبداً.

الثاني: صحيح أن ابن عبد العزيز أعاد فدكاً إلى البيت العلوي، وكانت فدك رمزاً لظلامة أهل البيت، وكان رَدُّها دليلاً عند الناس على صدق مذهبهم.

إلَّا أن الأئمة لم يعبؤوا بذلك ولم يعتبروه كافياً لحسن سلوك النظام؛ لأن النظام كان أساسه باطلاً، وكانت حركة الأئمة تستهدف إصلاح المجتمع من جذوره كما يفعل الأنبياء عليهم السلام.

والحديث التالي يكشف عن طريقة تفكير طليعة الأمة فيما يتعلق بنظام عمر بن عبد العزيز، دعنا نستمع إليه.

فقد «رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَتَبَ إِلَى عَامِلِهِ بِخُرَاسَانَ: أَنْ أَوْفِدْ إِلَيَّ مِنْ عُلَمَاءِ بِلَادِكَ مِائَةَ رَجُلٍ أَسْأَلْهُمْ عَنْ سِيرَتِكَ، فَجَمَعَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ ذَلِكَ فَاعْتَذَرُوا، وَقَالُوا: إِنَّ لَنَا عِيَالًا وَأَشْغَالًا لَا يُمْكِنُنَا مُفَارَقَتُهُ، وَعَدْلُهُ لَا يَقْتَضِي

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٥١.

إِجْبَارَنَا، وَلَكِنْ قَدْ أَجْمَعْنَا عَلَى رَجُلٍ مِنَّا يَكُونُ عِوَضَنَا عِنْدَهُ وَلِسَانَنَا لَدَيْهِ، فَقَوْلُهُ قَوْلُنَا وَرَأْيُهُ رَأْيُنَا. فَأَوْفَدَ بِهِ الْعَامِلُ إِلَيْهِ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ سَلَّمَ وَجَلَسَ فَقَالَ لَهُ: أَخْلِ لِيَ الْمَجْلِسَ. فَقَالَ لَهُ: وَلِمَ ذَلِكَ وَأَنْتَ لَا تَخْلُو أَنْ تَقُولَ حَقًّا فَيُصَدِّقُوكَ أَوْ تَقُولَ بَاطِلًا فَيُكَذِّبُوكَ؟ فَقَالَ لَهُ: لَيْسَ مِنْ أَجْلِي أُرِيدُ خُلُوَّ الْمَجْلِسِ وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِكَ؛ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَدُورَ بَيْنَنَا كَلَامٌ تَكْرَهُ سَمَاعَهُ.

فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِ أَهْلِ الْمَجْلِسِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: قُلْ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ أَيْنَ صَارَ إِلَيْكَ؟ فَسَكَتَ طَوِيلًا، فَقَالَ لَهُ: أَلَا تَقُولُ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَالَ: وَلِمَ؟ فَقَالَ لَهُ: إِنْ قُلْتُ بِنَصٍّ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ كَانَ كَذِبًا، وَإِنْ قُلْتُ: بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ؛ قُلْتَ: فَنَحْنُ أَهْلُ بِلَادِ الْمَشْرِقِ وَلَمْ نَعْلَمْ بِذَلِكَ وَلَمْ نُجْمِعْ عَلَيْهِ، وَإِنْ قُلْتُ: بِالْمِيرَاثِ مِنْ آبَائِي؛ قُلْتَ: بَنُو أَبِيكَ كَثِيرٌ فَلِمَ تَفَرَّدْتَ أَنْتَ بِهِ دُونَهُمْ. فَقَالَ لَهُ: الْحَمْدُ للهِ عَلَى اعْتِرَافِكَ عَلَى نَفْسِكَ بِالْحَقِّ لِغَيْرِكَ، أَفَأَرْجِعُ إِلَى بِلَادِي؟ فَقَالَ: لَا، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَوَاعِظٌ قَطُّ، فَقَالَ لَهُ: فَقُلْ مَا عِنْدَكَ بَعْدَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ لَهُ: رَأَيْتُ أَنَّ مَنْ تَقَدَّمَنِي ظَلَمَ وَغَشَمَ وَجَارَ وَاسْتَأْثَرَ بِفَيْءِ الْمُسْلِمِينَ وَعَلِمْتُ مِنْ نَفْسِي أَنِّي لَا أَسْتَحِلُّ ذَلِكَ وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا شَيْءَ يَكُونُ أَنْقَصَ وَأَخَفَّ عَلَيْهِمْ فَوَلِيتُ، فَقَالَ لَهُ: أَخْبِرْنِي لَوْ لَمْ تَلِ هَذَا الْأَمْرَ وَوَلِيَهُ غَيْرُكَ وَفَعَلَ مَا فَعَلَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ أَكَانَ يَلْزَمُكَ مِنْ إِثْمِهِ شَيْءٌ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَالَ لَهُ: فَأَرَاكَ قَدْ شَرَيْتَ رَاحَةَ غَيْرِكَ بِتَعَبِكَ وَسَلَامَتَهُ بِخَطَرِكَ. فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ لَوَاعِظٌ قَطُّ، فَقَامَ لِيَخْرُجَ ثُمَّ قَالَ لَهُ: وَاللهِ لَقَدْ هَلَكَ أَوَّلُنَا بِأَوَّلِكُمْ وَأَوْسَطُنَا بِأَوْسَطِكُمْ وَسَيَهْلِكُ آخِرُنَا بِآخِرِكُمْ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيْكُمْ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

وموقف الإمام من عمر بن عبد العزيز كان انتهاز الفرصة المؤاتية لتبليغ الرسالة ونصيحة الولاة، ويصحح ما يمكن تصحيحه من أوضاع الأمة دون الاعتراف بشرعية النظام بالجملة، وفيما يلي نقرأ حديثاً يصف

دخول الإمام عليه ونصيحته له:

يروي هِشَام بْن مُعَاذ ويقول: كُنْتُ جليساً لِعُمَر بْن عَبْد الْعَزِيز حَيْثُ دَخَلَ المدِينَة، فَأَمَرَ مُنَادِيَهُ فَنَادَى: مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ أَوْ ظُلَامَةٌ فَلْيَأْتِ الْبَابَ، فَأَتَى مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام، يَعْنِي الْبَاقِرَ عليه السلام، فَدَخَلَ إِلَيْهِ مَوْلَاهُ مُزَاحِمٌ فَقَالَ: إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ بِالْبَابِ. فَقَالَ لَهُ: أَدْخِلْهُ يَا مُزَاحِمُ. قَالَ: فَدَخَلَ وَعُمَرُ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ مِنَ الدُّمُوعِ، فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام:

مَا أَبْكَاكَ يَا عُمَرُ؟ فَقَالَ هِشَامٌ: أَبْكَاهُ كَذَا وَكَذَا يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام: يَا عُمَرُ! إِنَّمَا الدُّنْيَا سُوقٌ مِنَ الْأَسْوَاقِ مِنْهَا خَرَجَ قَوْمٌ بِمَا يَنْفَعُهُمْ وَمِنْهَا خَرَجُوا بِمَا يَضُرُّهُمْ، وَكَمْ مِنْ قَوْمٍ قَدْ ضَرَّهُمْ بِمِثْلِ الَّذِي أَصْبَحْنَا فِيهِ حَتَّى أَتَاهُمُ الْمَوْتُ فَاسْتَوْعَبُوا فَخَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا مَلُومِينَ لِمَا لَمْ يَأْخُذُوا لِمَا أَحَبُّوا مِنَ الْآخِرَةِ عُدَّةً وَلَا مِمَّا كَرِهُوا جُنَّةً، قَسَمَ مَا جَمَعُوا مَنْ لَا يَحْمَدُهُمْ، وَصَارُوا إِلَى مَنْ لَا يَعْذِرُهُمْ، فَنَحْنُ وَاللهِ مُحِقُّونَ أَنْ نَنْظُرَ إِلَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ الَّتِي كُنَّا نَغْبِطُهُمْ بِهَا فَنُوَافِقَهُمْ، وَنَنْظُرَ إِلَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ الَّتِي كُنَّا نَتَخَوَّفُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا فَنَكُفَّ عَنْهَا.

فَاتَّقِ اللهَ وَاجْعَلْ فِي قَلْبِكَ اثْنَتَيْنِ تَنْظُرُ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ إِذَا قَدِمْتَ عَلَى رَبِّكَ فَقَدِّمْهُ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَتَنْظُرُ الَّذِي تَكْرَهُهُ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ إِذَا قَدِمْتَ عَلَى رَبِّكَ فَابْتَغِ بِهِ الْبَدَلَ، وَلَا تَذْهَبَنَّ إِلَى سِلْعَةٍ قَدْ بَارَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكَ تَرْجُو أَنْ تَجُوزَ عَنْكَ، وَاتَّقِ اللهَ يَا عُمَرُ وَافْتَحِ الْأَبْوَابَ وَسَهِّلِ الْحِجَابَ وَانْصُرِ الْمَظْلُومَ وَرُدَّ الْمَظَالِمَ.

ثُمَّ قَالَ: ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ بِاللهِ.

فَجَثَا عُمَرُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَقَالَ: إِيهِ يَا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، فَقَالَ: نَعَمْ

يَا عُمَرُ! مَنْ إِذَا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاهُ فِي الْبَاطِلِ، وَإِذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ مِنَ الْحَقِّ، وَمَنْ إِذَا قَدَرَ لَمْ يَتَنَاوَلْ مَا لَيْسَ لَهُ.

فَدَعَا عُمَرُ بِدَوَاةٍ فِي قِرْطَاسٍ وَكَتَبَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا رَدَّ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ظُلَامَةَ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ فَدَكَ».

ثانياً: يبدو أن بني أمية كانوا يتجنبون قتل أبناء علي عليه السلام بصورة ظاهرة؛ للآثار السلبية التي خلفتها عليهم واقعة الطف، وكان الأئمة بدورهم لا يجدون الظروف مؤاتية للقيام بنهضة دموية. والقصة التالية التي يذكرها الرواة تشهد بذلك، فبعد أن نازع زيد بن الحسن الإمام الباقر في ميراث رسول الله استنجد بالخليفة الأموي (عبد الملك بن مروان) ودخل عليه وقال له: أَتَيْتُكَ مِنْ عِنْدِ سَاحِرٍ كَذَّابٍ لَا يَحِلُّ لَكَ تَرْكُهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ مَا رَأَى وَكَتَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى عَامِلِ الْمَدِينَةِ: أَنِ ابْعَثْ إِلَيَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ مُقَيَّداً، وَقَالَ لِزَيْدٍ: أَرَأَيْتَكَ إِنْ وَلَّيْتُكَ قَتْلَهُ قَتَلْتَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ.

ولكن عامله على المدينة استدرك الأمر وكتب إلى الخليفة: إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي أَرَدْتَهُ لَيْسَ الْيَوْمَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَعَفَّ مِنْهُ وَلَا أَزْهَدَ وَلَا أَوْرَعَ مِنْهُ، وَإِنَّهُ لَيَقْرَأُ فِي مِحْرَابِهِ فَيَجْتَمِعُ الطَّيْرُ وَالسِّبَاعُ تَعَجُّباً لِصَوْتِهِ، وَإِنَّ قِرَاءَتَهُ كَشِبْهِ مَزَامِيرِ دَاوُدَ، وَإِنَّهُ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ وَأَرَقِّ النَّاسِ وَأَشَدِّ النَّاسِ اجْتِهَاداً وَعِبَادَةً، وَكَرِهْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ التَّعَرُّضَ لَهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وهكذا تراجع عبد الملك مما بدر منه. وبعد أن اكتشف كذب زيد بن الحسن أخذه وقيّده وهيّأه، وقال له: لَوْلَا أَنِّي أُرِيدُ لَا أُبْتَلَى بِدَمِ أَحَدٍ مِنْكُمْ لَقَتَلْتُكَ. ثم كتب إلى الإمام الباقر عليه السلام: بَعَثْتُ إِلَيْكَ بِابْنِ عَمِّكَ فَأَحْسِنْ أَدَبَهُ[1].

(١) بحار الأنوار، ج٤٦، ص ٣٢٩ - ٣٣١، باختصار.

من هذه القصة نعرف أن ملوك بني أمية كانوا يتجنبون ما أمكنهم قتل أولاد علي عليه السلام بصورة ظاهرة.

ثالثاً: كانت المعارضــة العلنية لحكم بني أمية أصبحت معروفة، ويروي التاريخ بعض النماذج منها. ونذكر فيما يلي اثنين منها:

١- يحكي الديلمي قصة طريفة في كتابه أعلام الدين يقول:

«قَالَ رَجُلٌ لِعَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ: أُنَاظِرُكَ وَأَنَا آمِنٌ؟

قَالَ: نَعَمْ.

فَقَالَ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي صَارَ إِلَيْكَ أَبِنَصٍّ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ؟

قَالَ: لَا.

قَالَ: اجْتَمَعَتِ الْأُمَّةُ فَتَرَاضَوْا بِكَ؟

فَقَالَ: لَا.

قَالَ: فَكَانَتْ لَكَ بَيْعَةٌ فِي أَعْنَاقِهِمْ فَوَفَوْا بِهَا؟

قَالَ: لَا.

قَالَ: فَاخْتَارَكَ أَهْلُ الشُّورَى؟

قَالَ: لَا. قَالَ: أَفَلَيْسَ قَدْ قَهَرْتَهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ وَاسْتَأْثَرْتَ بِفَيْئِهِمْ دُونَهُمْ؟

قَالَ: بَلَى.

قَالَ: فَبِأَيِّ شَيْءٍ سُـمِّيتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ يُؤَمِّرْكَ اللهُ وَلَا رَسُـولُهُ وَلَا الْمُسْلِمُونَ؟

قَالَ لَهُ: اخْرُجْ عَنْ بِلَادِي وَإِلَّا قَتَلْتُكَ.

قَالَ: لَيْسَ هَذَا جَوَابَ أَهْلِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، ثُمَّ خَرَجَ عَنْهُ»[1].

٢- وقصة أخرى ينقلها الشيخ الطوسي في أماليه عن الشيخ المفيد عن الثمالي قال:

«حَدَّثَنِي مَنْ حَضَرَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ بِمَكَّةَ، فَلَمَّا صَارَ إِلَى مَوْضِعِ الْعِظَةِ مِنْ خُطْبَتِهِ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: مَهْلاً مَهْلاً إِنَّكُمْ تَأْمُرُونَ وَلَا تَأْتَمِرُونَ وَتَنْهَوْنَ وَلَا تَنْتَهُونَ وَتَعِظُونَ وَلَا تَتَّعِظُونَ، أَفَاقْتِدَاءً بِسِيرَتِكُمْ أَمْ طَاعَةً لِأَمْرِكُمْ؟ فَإِنْ قُلْتُمْ: اقْتِدَاءً بِسِيرَتِنَا، فَكَيْفَ يُقْتَدَى بِسِيرَةِ الظَّالِمِينَ؟ وَمَا الْحُجَّةُ فِي اتِّبَاعِ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَالَ اللهِ دُوَلًا وَجَعَلُوا عِبَادَ اللهِ خَوَلًا؟ وَإِنْ قُلْتُمْ: أَطِيعُوا أَمْرَنَا وَاقْبَلُوا نُصْحَنَا، فَكَيْفَ يَنْصَحُ غَيْرَهُ مَنْ لَمْ يَنْصَحْ نَفْسَهُ؟ أَمْ كَيْفَ تَجِبُ طَاعَةُ مَنْ لَمْ تَثْبُتْ لَهُ عَدَالَةٌ؟ وَإِنْ قُلْتُمْ: خُذُوا الْحِكْمَةَ مِنْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهَا وَاقْبَلُوا الْعِظَةَ مِمَّنْ سَمِعْتُمُوهَا، فَلَعَلَّ فِينَا مَنْ هُوَ أَفْصَحُ بِصُنُوفِ الْعِظَاتِ وَأَعْرَفُ بِوُجُوهِ اللُّغَاتِ مِنْكُمْ، فَتَزَحْزَحُوا عَنْهَا وَأَطْلِقُوا أَقْفَالَهَا وَخَلُّوا سَبِيلَهَا، يَنْتَدِبْ لَهَا الَّذِينَ شَرَّدْتُمْ فِي الْبِلَادِ وَنَقَلْتُمُوهُمْ عَنْ مُسْتَقَرِّهِمْ إِلَى كُلِّ وَادٍ، فَوَاللهِ مَا قَلَّدْنَاكُمْ أَزِمَّةَ أُمُورِنَا وَحَكَّمْنَاكُمْ فِي أَمْوَالِنَا وَأَبْدَانِنَا وَأَدْيَانِنَا لِتَسِيرُوا فِينَا بِسِيرَةِ الْجَبَّارِينَ، غَيْرَ أَنَّا بُصَرَاءُ بِأَنْفُسِنَا لِاسْتِيفَاءِ الْمُدَّةِ وَبُلُوغِ الْغَايَةِ وَتَمَامِ الْمِحْنَةِ، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مِنْكُمْ يَوْمٌ لَا يَعْدُوهُ، وَكِتَابٌ لَا بُدَّ أَنْ يَتْلُوَهُ ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾. قَالَ فَقَامَ إِلَيْهِ بَعْضُ أَصْحَابِ الْمَسَالِحِ فَقَبَضَ عَلَيْهِ، وَكَانَ آخِرَ عَهْدِنَا بِهِ وَلَا نَدْرِي مَا كَانَتْ حَالُهُ»[2].

---

(١) أعلام الدين، ص٣٢٩. بحار الأنوار، ج٤٦، ص ٣٣٥.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي، ص١٠٨. بحار الأنوار، ج٤٦، ص ٣٣٧.

رابعاً: خروج الإمام إلى الشام.

إن حادثة استدعاء هشام بن عبد الملك الإمام الباقر عليه السلام من المدينة إلى الشام، تكشف عن طبيعة علاقة الإمام بالسلطة السياسية، وما كان يُعانيه منها، وكيف كان يتحداها. ونحن إذ نثبت نصًا تاريخيًا فيها ندع للقارئ فرصة التأمل فيها، على أن النصوص مختلفة في تفاصيل هذه الواقعة، وإنما نذكر أكثرها تفصيلاً بإذن الله.

وقد حَجَّ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ سَنَةً مِنَ السِّنِينَ، وَكَانَ قَدْ حَجَّ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْبَاقِرُ وَابْنُهُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عليهما السلام. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي بَعَثَ مُحَمَّداً بِالحَقِّ نَبِيًّا، وَأَكْرَمَنَا بِهِ، فَنَحْنُ صَفْوَةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَخِيَرَتُهُ مِنْ عِبَادِهِ، وَخُلَفَاؤُهُ، فَالسَّعِيدُ مَنِ اتَّبَعَنَا وَالشَّقِيُّ مَنْ عَادَانَا وَخَالَفَنَا.**

ثُمَّ قَالَ: فَأَخْبَرَ مَسْلَمَةُ أَخَاهُ بِمَا سَمِعَ فَلَمْ يَعْرِضْ لَنَا حَتَّى انْصَرَفَ إِلَى دِمَشْقَ وَانْصَرَفْنَا إِلَى المَدِينَةِ فَأَنْفَذَ بَرِيداً إِلَى عَامِلِ المَدِينَةِ بِإِشْخَاصِ أَبِي وَإِشْخَاصِي مَعَهُ، فَأَشْخَصَنَا، فَلَمَّا وَرَدْنَا مَدِينَةَ دِمَشْقَ حَجَبَنَا ثَلَاثاً ثُمَّ أَذِنَ لَنَا فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ، فَدَخَلْنَا وَإِذَا قَدْ قَعَدَ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ وَجُنْدُهُ وَخَاصَّتُهُ وُقُوفٌ عَلَى أَرْجُلِهِمْ سِمَاطَانِ مُتَسَلِّحَانِ، وَقَدْ نُصِبَ الْبُرْجَاسُ حِذَاهُ، وَأَشْيَاخُ قَوْمِهِ يَرْمُونَ، فَلَمَّا دَخَلْنَا وَأَبِي أَمَامِي وَأَنَا خَلْفَهُ فَنَادَى أَبِي وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! ارْمِ مَعَ أَشْيَاخِ قَوْمِكَ الْغَرَضَ.

فَقَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ عَنِ الرَّمْيِ فَهَلْ رَأَيْتَ أَنْ تُعْفِيَنِي.

فَقَالَ: وَحَقِّ مَنْ أَعَزَّنَا بِدِينِهِ وَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله لَا أُعْفِيكَ. ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَى شَيْخٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ: أَنْ أَعْطِهِ قَوْسَكَ، فَتَنَاوَلَ أَبِي عِنْدَ ذَلِكَ قَوْسَ الشَّيْخِ

ثُمَّ تناولَ منهُ سهماً فوضعهُ في كبدِ القوسِ ثُمَّ انتزعَ ورمى وسطَ الغرضِ فنصبَهُ فيهِ، ثُمَّ رمى فيهِ الثانيةَ فشقَّ فُواقَ سهمِهِ إلى نصلِهِ، ثُمَّ تابعَ الرَّمي حتّى شقَّ تسعةَ أسهُمٍ بعضُها في جوفِ بعضٍ وهشامٌ يضطربُ في مجلسِهِ، فلَمْ يتمالكْ إلّا أنْ قالَ: أجدتَ يا أبا جعفرٍ وأنتَ أرمى العربِ والعجمِ، هلّا زعمتَ أنّكَ كبرتَ عنِ الرَّمي، ثُمَّ أدركتْهُ ندامةٌ على ما قالَ.

وكانَ هشامٌ لَمْ يكنْ كنّى أحداً قبلَ أبي ولا بعدَهُ في خلافتِهِ، فهَمَّ بهِ وأطرقَ إلى الأرضِ إطراقةً يتروّى فيها وأنا وأبي واقفٌ حذاهُ مواجهَيْنِ لهُ، فلمّا طالَ وقوفُنا غضبَ أبي فهَمَّ بهِ، وكانَ أبي عليه السلام إذا غضبَ نظرَ إلى السَّماءِ نظرَ غضبانَ يرى النّاظرُ الغضبَ في وجهِهِ، فلمّا نظرَ هشامٌ إلى ذلكَ مِنْ أبي.

قالَ لهُ: إليَّ يا محمَّدُ!

فصعدَ أبي إلى السَّريرِ وأنا أتبعُهُ، فلمّا دنا مِنْ هشامٍ قامَ إليهِ واعتنقَهُ وأقعدَهُ عنْ يمينِهِ، ثُمَّ اعتنقني وأقعدني عنْ يمينِ أبي، ثُمَّ أقبلَ على أبي بوجهِهِ.

فقالَ لهُ: يا محمَّدُ! لا تزالُ العربُ والعجمُ تسودُها قريشٌ ما دامَ فيهِمْ مثلُكَ، للهِ درُّكَ! مَنْ علَّمكَ هذا الرَّمي؟ وفي كمْ تعلَّمتَهُ؟

فقالَ أبي: **قدْ علمتُ أنَّ أهلَ المدينةِ يتعاطونَهُ فتعاطيتُهُ أيّامَ حداثتي ثُمَّ تركتُهُ، فلمّا أرادَ أميرُ المؤمنينَ منّي ذلكَ عُدتُ فيهِ.**

فقالَ لهُ: ما رأيتُ مثلَ هذا الرَّمي قطُّ مُذْ عقلتُ، وما ظننتُ أنَّ في الأرضِ أحداً يرمي مثلَ هذا الرَّمي، أيرمي جعفرٌ مثلَ رميِكَ؟

فقالَ: **إنّا نحنُ نتوارثُ الكمالَ والتَّمامَ اللَّذينِ أنزلَهُما اللهُ على نبيِّهِ صلى الله عليه وآله في قولِهِ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ**

لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾(١)، وَالأَرْضُ لا تَخْلُو مِمَّنْ يُكْمِلُ هَذِهِ الأُمُورَ الَّتِي يَقْصُرُ غَيْرُنَا عَنْهَا.

قَالَ: فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ أَبِي انْقَلَبَتْ عَيْنُهُ الْيُمْنَى فَاحْوَلَّتْ وَاحْمَرَّ وَجْهُهُ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلامَةَ غَضَبِهِ إِذَا غَضِبَ، ثُمَّ أَطْرَقَ هُنَيْئَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ.

فَقَالَ لِأَبِي: أَلَسْنَا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ نَسَبُنَا وَنَسَبُكُمْ وَاحِدٌ؟

فَقَالَ أَبِي: نَحْنُ كَذَلِكَ وَلَكِنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ اخْتَصَّنَا مِنْ مَكْنُونِ سِرِّهِ وَخَالِصِ عِلْمِهِ بِمَا لَمْ يَخُصَّ أَحَداً بِهِ غَيْرَنَا.

فَقَالَ: أَلَيْسَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ مِنْ شَجَرَةِ عَبْدِ مَنَافٍ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً أَبْيَضِهَا وَأَسْوَدِهَا وَأَحْمَرِهَا، مِنْ أَيْنَ وَرِثْتُمْ مَا لَيْسَ لِغَيْرِكُمْ؟ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مَبْعُوثٌ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٢) إِلَى آخِرِ الآيَةِ. فَمِنْ أَيْنَ وَرِثْتُمْ هَذَا الْعِلْمَ وَلَيْسَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ نَبِيٌّ وَلا أَنْتُمْ أَنْبِيَاءُ؟

فَقَالَ: مِنْ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾(٣)، الَّذِي لَمْ يُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَهُ لِغَيْرِنَا أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَخُصَّنَا بِهِ مِنْ دُونِ غَيْرِنَا، فَلِذَلِكَ كَانَ نَاجَى أَخَاهُ عَلِيّاً مِنْ دُونِ أَصْحَابِهِ فَأَنْزَلَ اللهُ بِذَلِكَ قُرْآناً فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾(٤) فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «سَأَلْتُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَهَا أُذُنَكَ يَا عَلِيُّ». فَلِذَلِكَ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ بِالْكُوفَةِ: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَلْفَ بَابٍ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

(٣) سورة القيامة، الآية: ١٦.

(٤) سورة الحاقة، الآية: ١٢.

مِنَ الْعِلْمِ». فَفَتَحَ كُلُّ بَابٍ أَلْفَ بَابٍ خَصَّهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله مِنْ مَكْنُونِ سِرِّهِ بِمَا يَخُصُّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَكْرَمَ الْخَلْقِ عَلَيْهِ، فَكَمَا خَصَّ اللهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله خَصَّ نَبِيُّهُ صلى الله عليه وآله أَخَاهُ عَلِيًّا مِنْ مَكْنُونِ سِرِّهِ بِمَا لَمْ يَخُصَّ بِهِ أَحَداً مِنْ قَوْمِهِ، حَتَّى صَارَ إِلَيْنَا فَتَوَارَثْنَا مِنْ دُونِ أَهْلِنَا.

فَقَالَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ: إِنَّ عَلِيًّا كَانَ يَدَّعِي عِلْمَ الْغَيْبِ وَاللهُ لَمْ يُطْلِعْ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً، فَمِنْ أَيْنَ ادَّعَى ذَلِكَ؟

فَقَالَ أَبِي: إِنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله كِتَاباً بَيَّنَ فِيهِ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(١)، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾(٢)، وَأَوْحَى اللهُ إِلَى نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله أَلَّا يَبْقَى فِي غَيْبِهِ وَسِرِّهِ وَمَكْنُونِ عِلْمِهِ شَيْئاً إِلَّا يُنَاجِي بِهِ عَلِيًّا، فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَلِّفَ الْقُرْآنَ مِنْ بَعْدِهِ وَيَتَوَلَّى غُسْلَهُ وَتَكْفِينَهُ وَتَحْنِيطَهُ مِنْ دُونِ قَوْمِهِ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «حَرَامٌ عَلَى أَصْحَابِي وَأَهْلِي أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى عَوْرَتِي غَيْرَ أَخِي عَلِيٍّ فَإِنَّهُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ لَهُ مَا لِي وَعَلَيْهِ مَا عَلَيَّ وَهُوَ قَاضِي دَيْنِي وَمُنْجِزُ وَعْدِي»، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يُقَاتِلُ عَلَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ كَمَا قَاتَلْتُ عَلَى تَنْزِيلِهِ». وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَحَدٍ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ بِكَمَالِهِ وَتَمَامِهِ إِلَّا عِنْدَ عَلِيٍّ عليه السلام وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله لِأَصْحَابِهِ: «أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ»، أَيْ هُوَ قَاضِيكُمْ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «لَوْ لَا عَلِيٌّ لَهَلَكَ عُمَرُ» يَشْهَدُ لَهُ عُمَرُ وَيَجْحَدُهُ غَيْرُهُ.

فَأَطْرَقَ هِشَامٌ طَوِيلًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: سَلْ حَاجَتَكَ.

فَقَالَ: خَلَّفْتُ عِيَالِي وَأَهْلِي مُسْتَوْحِشِينَ لِخُرُوجِي.

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

فقال: قدْ آنس الله وَحشتَهمْ برُجوعِك إليهِمْ، ولا تقم، سِرْ مِنْ يَومك.

فاعتنقهُ أبي ودعا لهُ وفعلتُ أنا كفِعل أبي، ثمّ نهض ونهضتُ معهُ وخرجنا إلى بابهِ إذا ميدانٌ ببابهِ وفي آخرِ الميدانِ أناسٌ قُعودٌ عددٌ كثيرٌ قال أبي: منْ هؤلاءِ؟

فقالَ الحُجّابُ: هؤلاءِ القسّيسونَ والرُّهبانُ وهذا عالمٌ لهمْ يقعُدُ إليهِمْ في كُلِّ سنةٍ يوماً واحداً يستفتونهُ فيُفتيهِمْ.

فلفَّ أبي عندَ ذلكَ رأسهُ بفاضلِ ردائهِ وفعلتُ أنا مثلَ فعلِ أبي فأقبلَ نحوهُمْ حتّى قعدَ نحوهُمْ وقعدتُ وراءَ أبي، ورُفعَ ذلكَ الخبرُ إلى هشامٍ فأمرَ بعضَ غلمانهِ أنْ يحضُرَ الموضعَ فينظُرَ ما يصنعُ أبي، فأقبلَ وأقبلَ عدادٌ منَ المسلمينَ فأحاطوا بنا، وأقبلَ عالمُ النّصارى وقدْ شدَّ حاجبيهِ بحريرةٍ صفراءَ حتّى توسّطنا، فقامَ إليهِ جميعُ القسّيسينَ والرُّهبانِ مُسلّمينَ عليهِ فجاؤوا بهِ إلى صدرِ المجلسِ فقعدَ فيهِ وأحاطَ بهِ أصحابُهُ وأبي وأنا بينهُمْ، فأدارَ نظرهُ ثمّ قالَ لأبي:

أمنّا أمْ منْ هذهِ الأُمّةِ المرحومةِ؟

فقالَ أبي: **بلْ منْ هذهِ الأُمّةِ المرحومةِ.**

فقالَ: منْ أيّهِمْ أنتَ، منْ عُلمائِها أمْ منْ جُهّالِها؟

فقالَ لهُ أبي: **لستُ منْ جُهّالِها**، فاضطربَ اضطراباً شديداً، ثمّ قالَ لهُ: أسألُكَ؟ فقالَ لهُ أبي: **سلْ**. فقالَ: منْ أينَ ادّعيتُمْ أنّ أهلَ الجنّةِ يطعمونَ ويشربونَ ولا يُحدثونَ ولا يبولونَ؟

وما الدّليلُ فيما تدّعونهُ منْ شاهدٍ لا يُجهلُ؟

فقال لهُ أبي: **دَلِيلُ مَا تَدَّعِي مِنْ شَاهِدٍ لَا يُجْهَلُ الْجَنِينُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ يَطْعَمُ وَلَا يُحْدِثُ.**

قال: فاضطربَ النَّصرانيُّ اضطرابا شديدا، ثُمَّ قالَ: هلَّا زعمتَ أنَّكَ لستَ مِنْ عُلَمائِها؟

فقالَ لهُ أبي: **وَلَا مِنْ جُهَّالِهَا**، وأصحابُ هِشام يسمعُونَ ذلكَ.

فقالَ لأبي: أسألُكَ عنْ مسألةٍ أُخرى، فقالَ لهُ أبي: **سَلْ.**

فقالَ: مِنْ أينَ ادَّعيتُم أنَّ فاكِهةَ الجَنَّةِ أبداً غضَّةٌ طريَّةٌ موجودةٌ غيرُ معدومةٍ عندَ جميعِ أهلِ الجَنَّةِ؟ وما الدَّليلُ عليهِ مِنْ شاهدٍ لا يُجهَلُ؟

فقالَ لهُ أبي: **دَلِيلُ مَا نَدَّعِي أَنَّ تُرَابَنَا أَبَداً يَكُونُ غَضّاً طَرِيّاً مَوْجُوداً غَيْرَ مَعْدُومٍ عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ الدُّنْيَا لَا يَنْقَطِعُ.**

فاضطربَ اضطراباً شديداً، ثُمَّ قالَ: هلَّا زعمتَ أنَّكَ لستَ مِنْ عُلَمائِها؟

فقالَ لهُ أبي: **وَلَا مِنْ جُهَّالِهَا.**

فقالَ لهُ أسألُكَ عنْ مسألةٍ؟ فقالَ: سَلْ فقالَ أخبِرْني عنْ ساعةٍ لا مِنْ ساعاتِ اللَّيلِ ولا مِنْ ساعاتِ النَّهارِ؟

فقالَ لهُ أبي: **هِيَ السَّاعَةُ الَّتِي بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ، يَهْدَأُ فِيهَا الْمُبْتَلَى، وَيَرْقُدُ فِيهِ السَّاهِرُ، وَيُفِيقُ الْمُغْمَى عَلَيْهِ، جَعَلَهَا اللهُ فِي الدُّنْيَا رَغْبَةً لِلرَّاغِبِينَ وَفِي الْآخِرَةِ لِلْعَامِلِينَ لَهَا دَلِيلاً وَاضِحاً وَحُجَّةً بَالِغَةً عَلَى الْجَاحِدِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ التَّارِكِينَ لَهَا.**

قالَ: فصاحَ النَّصرانيُّ صيحةً، ثُمَّ قالَ: بقيتْ مسألةٌ واحدةٌ واللهِ

لَأَسْأَلُكَ عَنْ مَسْأَلَةٍ لا تَهْدى إِلَى الْجَوابِ عَنْها أَبَداً.

قالَ لَهُ أَبِي: سَلْ فَإِنَّكَ حانِثٌ في يَمينِكَ.

فَقالَ: أَخْبِرْني عَنْ مَوْلُودَيْنِ وُلِدا في يَوْمٍ واحِدٍ وَماتا في يَوْمٍ واحِدٍ عُمْرُ أَحَدِهِما خَمْسُونَ سَنَةً وَعُمْرُ الْآخَرِ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً في دارِ الدُّنْيا؟

فَقالَ لَهُ أَبِي: ذَلِكَ عُزَيْرٌ وَعُزَيْرَةُ وُلِدا في يَوْمٍ واحِدٍ فَلَمّا بَلَغا مَبْلَغَ الرِّجالِ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ عاماً مَرَّ عُزَيْرٌ عَلَى حِمارِهِ راكِباً عَلَى قَرْيَةٍ بِأَنْطاكِيَةَ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1] وَقَدْ كانَ اصْطَفاهُ وَهَداهُ، فَلَمّا قالَ ذَلِكَ الْقَوْلَ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ فَأَماتَهُ اللهُ مِائَةَ عامٍ سَخَطاً عَلَيْهِ بِما قالَ، ثُمَّ بَعَثَهُ عَلَى حِمارِهِ بِعَيْنِهِ وَطَعامِهِ وَشَرابِهِ وَعادَ إِلَى دارِهِ، وَعُزَيْرَةُ أَخُوهُ لا يَعْرِفُهُ فَاسْتَضافَهُ فَأَضافَهُ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ وَلَدَ عُزَيْرَةَ وَوَلَدَ وَلَدِهِ وَقَدْ شاخُوا، وَعُزَيْرٌ شابٌّ في سِنِّ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، فَلَمْ يَزَلْ عُزَيْرٌ يَذْكُرُ أَخاهُ وَوُلْدَهُ وَقَدْ شاخُوا وَهُمْ يَذْكُرُونَ ما يُذَكِّرُهُمْ وَيَقُولُونَ: ما أَعْلَمَكَ بِأَمْرٍ قَدْ مَضَتْ عَلَيْهِ السِّنُونَ وَالشُّهُورُ، وَيَقُولُ لَهُ عُزَيْرَةُ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ابْنُ مِائَةٍ وَخَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً: ما رَأَيْتُ شابّاً في سِنِّ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً أَعْلَمَ بِما كانَ بَيْني وَبَيْنَ أَخِي عُزَيْرٍ أَيّامَ شَبابِي مِنْكَ! فَمِنْ أَهْلِ السَّماءِ أَنْتَ أَمْ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ؟ فَقالَ: يا عُزَيْرَةُ أَنا عُزَيْرٌ سَخِطَ اللهُ عَلَيَّ بِقَوْلٍ قُلْتُهُ بَعْدَ أَنِ اصْطَفانِي وَهَدانِي، فَأَماتَنِي مِائَةَ سَنَةٍ ثُمَّ بَعَثَنِي لِتَزْدادُوا بِذَلِكَ يَقِيناً، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهاهُوَ هَذا حِمارِي وَطَعامِي وَشَرابِي الَّذِي خَرَجْتُ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ أَعادَهُ اللهُ تَعالَى كَما كانَ، فَعِنْدَها أَيْقَنُوا، فَأَعاشَهُ اللهُ بَيْنَهُمْ خَمْساً وَعِشْرِينَ سَنَةً ثُمَّ قَبَضَهُ اللهُ وَأَخاهُ في يَوْمٍ واحِدٍ.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

فنهض عالم النصارى عند ذلك قائماً وقاموا -النصارى- على أرجلهم فقال لهم عالمهم: جئتموني بأعلم مني وأقعدتموه معكم حتى هتكني وفضحني وأعلم المسلمين بأن لهم من أحاط بعلومنا وعنده ما ليس عندنا، لا والله لا كلمتكم من رأسي كلمة واحدة ولا قعدت لكم إن عشت سنة.

فتفرقوا وأبي قاعد مكانه وأنا معه ورفع ذلك الخبر إلى هشام.

فلما تفرق الناس نهض أبي وانصرف إلى المنزل الذي كنا فيه فوافانا رسول هشام بالجائزة وأمرنا أن ننصرف إلى المدينة من ساعتنا ولا نجلس؛ لأن الناس ماجوا وخاضوا فيما دار بين أبي وبين عالم النصارى. فركبنا دوابنا منصرفين، وقد سبقنا بريد من عند هشام إلى عامل مدين على طريقنا إلى المدينة:

«أن ابني أبي تراب الساحرين محمد بن علي وجعفر بن محمد الكذابين، بل هو الكذاب لعنه الله، فيما يظهران من الإسلام وردا علي ولما صرفتهما إلى المدينة مالا إلى القسيسين والرهبان من كفار النصارى وأظهرا لهما دينهما ومرقا من الإسلام إلى الكفر دين النصارى، وتقربا إليهم بالنصرانية فكرهت أن أنكل بهما لقرابتهما، فإذا قرأت كتابي هذا فناد في الناس برئت الذمة ممن يشاريهما أو يبايعهما أو يصافحهما أو يسلم عليهما؛ فإنهما قد ارتدا عن الإسلام، ورأى أمير المؤمنين أن يقتلهما ودوابهما وغلمانهما ومن معهما شر قتلة».

قال: فورد البريد إلى مدينة مدين فلما شارفنا مدينة مدين قدم أبي غلمانه ليرتادوا لنا منزلاً ويشروا لدوابنا علفاً ولنا طعاماً، فلما قرب غلماننا من باب المدينة أغلقوا الباب في وجوهنا وشتمونا، وذكروا علي بن أبي طالب صلوات الله عليه فقالوا: لا نزول لكم عندنا ولا شراء ولا بيع يا كفار يا مشركين يا مرتدين يا كذابين يا شر الخلائق أجمعين. فوقف غلماننا

عَلَى الْبَابِ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ فَكَلَّمَهُمْ أَبِي وَلَيَّنَ لَهُمُ الْقَوْلَ وَقَالَ لَهُمْ:

اتَّقُوا اللهَ وَلَا تَغْلُظُوا، فَلَسْنَا كَمَا بَلَغَكُمْ، وَلَا نَحْنُ كَمَا تَقُولُونَ، فَاسْمَعُونَا، فَقَالَ لَهُمْ: فَهَبْنَا كَمَا تَقُولُونَ افْتَحُوا لَنَا الْبَابَ وَشَارُونَا وَبَايِعُونَا كَمَا تُشَارُونَ وَتُبَايِعُونَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ.

فَقَالُوا: أَنْتُمْ شَرٌّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ يُؤَدُّونَ الْجِزْيَةَ وَأَنْتُمْ مَا تُؤَدُّونَ.

فَقَالَ لَهُمْ أَبِي: **فَافْتَحُوا لَنَا الْبَابَ وَأَنْزِلُونَا وَخُذُوا مِنَّا الْجِزْيَةَ كَمَا تَأْخُذُونَ مِنْهُمْ.**

فَقَالُوا: لَا نَفْتَحُ وَلَا كَرَامَةَ لَكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا عَلَى ظُهُورِ دَوَابِّكُمْ جِيَاعاً أَوْ تَمُوتَ دَوَابُّكُمْ تَحْتَكُمْ.

فَوَعَظَهُمْ أَبِي فَازْدَادُوا عُتُوّاً وَنُشُوزاً، قَالَ فَثَنَى أَبِي رِجْلَهُ عَنْ سَرْجِهِ ثُمَّ قَالَ لِي: **مَكَانَكَ يَا جَعْفَرُ لَا تَبْرَحْ**، ثُمَّ صَعِدَ الْجَبَلَ الْمُطِلَّ عَلَى مَدِينَةِ مَدْيَنَ وَأَهْلُ مَدْيَنَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ مَا يَصْنَعُ فَلَمَّا صَارَ فِي أَعْلَاهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْمَدِينَةَ وَجَسَدِهِ ثُمَّ وَضَعَ إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ ثُمَّ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[1] **نَحْنُ وَاللهِ بَقِيَّةُ اللهِ فِي أَرْضِهِ.**

فَأَمَرَ اللهُ رِيحاً سَوْدَاءَ مُظْلِمَةً فَهَبَّتْ وَاحْتَمَلَتْ صَوْتَ أَبِي فَطَرَحَتْهُ

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٤ - ٨٦.

فِي أَسْمَاءِ الرِّجَالِ وَالصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ، فَمَا بَقِيَ أَحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ إِلَّا صَعِدَ السُّطُوحَ وَأَبِي مُشْرِفٌ عَلَيْهِمْ، وَصَعِدَ فِيمَنْ صَعِدَ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ مَدْيَنَ كَبِيرُ السِّنِّ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِي عَلَى الْجَبَلِ فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: اتَّقُوا اللهَ يَا أَهْلَ مَدْيَنَ فَإِنَّهُ قَدْ وَقَفَ الْمَوْقِفَ الَّذِي وَقَفَ فِيهِ شُعَيْبٌ عليه السلام حِينَ دَعَا عَلَى قَوْمِهِ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَفْتَحُوا لَهُ الْبَابَ وَلَمْ تُنْزِلُوهُ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ الْعَذَابُ؛ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ، وَقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ. فَفَزِعُوا وَفَتَحُوا الْبَابَ وَأَنْزَلُونَا، وَكَتَبَ بِجَمِيعِ ذَلِكَ إِلَى هِشَامٍ.

فَارْتَحَلْنَا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي فَكَتَبَ هِشَامٌ إِلَى عَامِلِ مَدْيَنَ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يَأْخُذَ الشَّيْخَ فَيَقْتُلَهُ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ وَصَلَوَاتُهُ، وَكَتَبَ إِلَى عَامِلِ مَدِينَةِ الرَّسُولِ أَنْ يَحْتَالَ فِي سَمِّ أَبِي فِي طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ فَمَضَى هِشَامٌ وَلَمْ يَتَهَيَّأْ لَهُ فِي أَبِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ»[1].

(١) بحار الأنوار، ص ٣٠٦ - ٣١٣، نقلاً عن دلائل الإمامة تصنيف محمد بن جرير الطبري الإمامي.

الفصل الثالث

شَهَادَتُهُ

بعد ثمانية عشر عاماً تصدى خلالها للإمامة الإسلامية، استجاب لنداء ربه الحق، قلبّاه راضياً مرضياً، وقد قضى من عمره المبارك سبعاً وخمسين ربيعاً.

في غرة رجب من عام ١١٤ للهجرة كان أهل بيته يحفّون به وكان السُّمُّ الذي دُسَّ إليه من خلال سرج امتطاه قد انتشر في جسده، فالتفت إلى نجله ووصيه الإمام الصادق عليه السلام وقال: **"يَا بُنَيَّ أَمَا سَمِعْتَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ نَادَانِي مِنْ وَرَاءِ الْجُدُرِ أَنْ يَا مُحَمَّدُ تَعَالَ عَجِّل، وقَالَ: يَا بُنَيَّ هَذِهِ اللَّيْلَةُ وُعِدْتُهَا. وَقَدْ كَانَ وَضُوؤُهُ قَرِيباً قَالَ: أَرِيقُوهُ أَرِيقُوهُ. فَظَنَنَّا أَنَّهُ يَقُولُ مِنَ الْحُمَّى، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ أَرِقْهُ. فَأَرَقْنَاهُ فَإِذَا فِيهِ فَأْرَةٌ"**.

وأوصى ابنه الإمام جعفر بن محمد بأن يُكفّنه في ثلاثة أثواب، أحدها رداء له، جده كان يصلي فيه يوم الجمعة، وثوب آخر وقميص. وأوصى أن يشق له القبر شقاً، وأضاف: **فَإِنْ قِيلَ لَكُمْ إِنَّ رَسُولَ اللهِ** صلى الله عليه وآله **لُحِدَ لَهُ فَقَدْ صَدَقُوا**.

وأوصى أن يُرفع أربع أصابع، وأن يُرشّ بالماء، وأن يُوقف من أمواله قدراً لكي تندبه النوادب بمنى عشر سنين أيام المنى.

ولما تُوفّي ضجّت المدينة المنورة. ويروى عن الإمام الصادق عليه السلام:

أن رجلاً كان على بعد أميال من المدينة فرأى في منامه أنه قيل له: انطلق فصل على أبي جعفر؛ فإن الملائكة تغسله، فجاء الرجل فوجد أبا جعفر قد توفي.

وبعد تجهيزه دفن في البقيع عند قبر والده الإمام زين العابدين وعم أبيه الإمام الحسن المجتبى[1].

فسلام الله عليه يوم ولد ويوم مات مسموماً ويوم يبعث حيًّا.

(١) هناك بعض الاختلافات في تفاصيل وفاته وسني عمره، وما نقلناه استعرناه من جملة روايات تجدها في بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١١٢ - ٢٢٠.

الفصل الرابع

كلماتُه المُضيئة

لقد فاضت بكلماته المضيئة كتب المعارف، أولَمْ يكن باقر العلم في أهل بيت الرسالة؟ ولكننا نقتبس منها قبسات لعل الله يُنَوِّر بها قلوبنا ويُبَصِّرنا حقائق أنفسنا ويهدينا إلى الصراط القويم.

تعال نستمع معاً إلى وصيته الرشيدة التي ألقاها إلى جابر بن يزيد الجعفي: «أُوصِيكَ بِخَمْسٍ: إِنْ ظُلِمْتَ فَلَا تَظْلِمْ، وَإِنْ خَانُوكَ فَلَا تَخُنْ، وَإِنْ كُذِّبْتَ فَلَا تَغْضَبْ، وَإِنْ مُدِحْتَ فَلَا تَفْرَحْ، وَإِنْ ذُمِمْتَ فَلَا تَجْزَعْ، وَفَكِّرْ فِيمَا قِيلَ فِيكَ فَإِنْ عَرَفْتَ مِنْ نَفْسِكَ مَا قِيلَ فِيكَ فَسُقُوطُكَ مِنْ عَيْنِ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ عِنْدَ غَضَبِكَ مِنَ الْحَقِّ أَعْظَمُ عَلَيْكَ مُصِيبَةً مِمَّا خِفْتَ مِنْ سُقُوطِكَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى خِلَافِ مَا قِيلَ فِيكَ فَثَوَابٌ اكْتَسَبْتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتْعَبَ بَدَنُكَ.

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَا تَكُونُ لَنَا وَلِيّاً حَتَّى لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أَهْلُ مِصْرِكَ وَقَالُوا: إِنَّكَ رَجُلُ سَوْءٍ؛ لَمْ يَحْزُنْكَ ذَلِكَ، وَلَوْ قَالُوا: إِنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ؛ لَمْ يَسُرَّكَ ذَلِكَ، وَلَكِنِ اعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَى مَا فِي كِتَابِ اللهِ فَإِنْ كُنْتَ سَالِكاً سَبِيلَهُ زَاهِداً فِي تَزْهِيدِهِ رَاغِباً فِي تَرْغِيبِهِ خَائِفاً مِنْ تَخْوِيفِهِ فَاثْبُتْ وَأَبْشِرْ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ مَا قِيلَ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُبَايِناً لِلْقُرْآنِ فَمَا ذَا الَّذِي يَغُرُّكَ مِنْ نَفْسِكَ. إِنَّ الْمُؤْمِنَ مَعْنِيٌّ بِمُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ لِيَغْلِبَهَا عَلَى هَوَاهَا،

فَمَـرَّةً يُقِيمُ أَوَدَهَـا وَيُخَالِفُ هَوَاهَا فِي مَحَبَّةِ اللهِ وَمَرَّةً تَصْرَعُهُ نَفْسُـهُ، فَيَتَّبِعُ هَوَاهَـا فَيَنْعَشُـهُ اللهُ فَيَنْتَعِشُ، وَيُقِيلُ اللهُ عَثْرَتَهُ فَيَتَذَكَّـرُ، وَيَفْزَعُ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَخَافَـةِ فَيَـزْدَادُ بَصِيرَةً وَمَعْرِفَـةً لِمَا زِيدَ فِيهِ مِنَ الْخَـوْفِ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يَقُـولُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾(١).

يَا جَابِرُ! اسْـتَكْثِرْ لِنَفْسِـكَ مِنَ اللهِ قَلِيلَ الرِّزْقِ تَخَلُّصاً إِلَى الشُّكْرِ، وَاسْـتَقْلِلْ مِنْ نَفْسِـكَ كَثِيرَ الطَّاعَةِ للهِ إِزْرَاءً عَلَى النَّفْسِ وَتَعَرُّضاً لِلْعَفْوِ، وَادْفَعْ عَنْ نَفْسِـكَ حَاضِرَ الشَّرِّ بِحَاضِرِ الْعِلْمِ، وَاسْـتَعْمِلْ حَاضِرَ الْعِلْمِ بِخَالِـصِ الْعَمَـلِ، وَتَحَرَّزْ فِي خَالِـصِ الْعَمَـلِ مِـنْ عَظِيـمِ الْغَفْلَةِ بِشِـدَّةِ التَّيَقُّظِ، وَاسْـتَجْلِبْ شِـدَّةَ التَّيَقُّظِ بِصِدْقِ الْخَوْفِ، وَاحْـذَرْ خَفِيَّ التَّزَيُّنِ بِحَاضِرِ الْحَيَاةِ، وَتَوَقَّ مُجَازَفَةَ الْهَوَى بِدَلَالَةِ الْعَقْلِ، وَقِفْ عِنْدَ غَلَبَةِ الْهَوَى بِاسْتِرْشَـاءِ الْعِلْمِ، وَاسْـتَبْقِ خَالِصَ الْأَعْـمَالِ لِيَوْمِ الْجَزَاءِ، وَانْزِلْ سَـاحَةَ الْقَنَاعَةِ بِاتِّقَاءِ الْحِرْصِ، وَادْفَعْ عَظِيمَ الْحِرْصِ بِإِيثَارِ الْقَنَاعَةِ، وَاسْـتَجْلِبْ حَـلَاوَةَ الزَّهَـادَةِ بِقَـصْرِ الْأَمَـلِ، وَاقْطَـعْ أَسْـبَابَ الطَّمَـعِ بِـبَرْدِ الْيَأْسِ، وَسُـدَّ سَـبِيلَ الْعُجْبِ بِمَعْرِفَةِ النَّفْسِ، وَتَخَلَّصْ إِلَى رَاحَـةِ النَّفْسِ بِصِحَّةِ التَّفْوِيـضِ، وَاطْلُبْ رَاحَةَ الْبَدَنِ بِإِجْمَامِ الْقَلْـبِ، وَتَخَلَّصْ إِلَى إِجْمَامِ الْقَلْبِ بِقِلَّةِ الْخَطَإِ، وَتَعَرَّضْ لِرِقَّةِ الْقَلْبِ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ فِي الْخَلَوَاتِ، وَاسْـتَجْلِبْ نُـورَ الْقَلْبِ بِـدَوَامِ الْحُزْنِ، وَتَحَرَّزْ مِـنْ إِبْلِيسَ بِالْخَوْفِ الصَّـادِقِ، وَإِيَّاكَ وَالرَّجَـاءَ الْكَاذِبَ فَإِنَّهُ يُوقِعُكَ فِي الْخَوْفِ الصَّـادِقِ، وَتَزَيَّنْ للهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالصِّدْقِ فِي الْأَعْـمَالِ، وَتَحَبَّبْ إِلَيْهِ بِتَعْجِيلِ الِانْتِقَالِ، وَإِيَّاكَ وَالتَّسْـوِيفَ فَإِنَّهُ بَحْـرٌ يَغْرَقُ فِيهِ الْهَلْكَى، وَإِيَّاكَ وَالْغَفْلَةَ فَفِيهَا تَكُونُ قَسَـاوَةُ الْقَلْبِ،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

وَإِيَّاكَ وَالتَّوَانِيَ فِيمَا لَا عُذْرَ لَكَ فِيهِ فَإِلَيْهِ يَلْجَأُ النَّادِمُونَ، وَاسْتَرْجِعْ سَالِفَ الذُّنُوبِ بِشِدَّةِ النَّدَمِ وَكَثْرَةِ الِاسْتِغْفَارِ، وَتَعَرَّضْ لِلرَّحْمَةِ وَعَفْوِ اللهِ بِحُسْنِ الْمُرَاجَعَةِ، وَاسْتَعِنْ عَلَى حُسْنِ الْمُرَاجَعَةِ بِخَالِصِ الدُّعَاءِ وَالْمُنَاجَاةِ فِي الظُّلَمِ، وَتَخَلَّصْ إِلَى عَظِيمِ الشُّكْرِ بِاسْتِكْثَارِ قَلِيلِ الرِّزْقِ وَاسْتِقْلَالِ كَثِيرِ الطَّاعَةِ، وَاسْتَجْلِبْ زِيَادَةَ النِّعَمِ بِعَظِيمِ الشُّكْرِ، وَتَوَسَّلْ إِلَى عَظِيمِ الشُّكْرِ بِخَوْفِ زَوَالِ النِّعَمِ، وَاطْلُبْ بَقَاءَ الْعِزِّ بِإِمَاتَةِ الطَّمَعِ، وَادْفَعْ ذُلَّ الطَّمَعِ بِعِزِّ الْيَأْسِ، وَاسْتَجْلِبْ عِزَّ الْيَأْسِ بِبُعْدِ الْهِمَّةِ، وَتَزَوَّدْ مِنَ الدُّنْيَا بِقَصْرِ الْأَمَلِ، وَبَادِرْ بِانْتِهَازِ الْبُغْيَةِ عِنْدَ إِمْكَانِ الْفُرْصَةِ وَلَا إِمْكَانَ كَالْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ مَعَ صِحَّةِ الْأَبْدَانِ، وَإِيَّاكَ وَالثِّقَةَ بِغَيْرِ الْمَأْمُونِ فَإِنَّ لِلشَّرِّ ضَرَاوَةً كَضَرَاوَةِ الْغِذَاءِ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا عِلْمَ كَطَلَبِ السَّلَامَةِ، وَلَا سَلَامَةَ كَسَلَامَةِ الْقَلْبِ وَلَا عَقْلَ كَمُخَالَفَةِ الْهَوَى، وَلَا خَوْفَ كَخَوْفٍ حَاجِزٍ، وَلَا رَجَاءَ كَرَجَاءٍ مُعِينٍ، وَلَا فَقْرَ كَفَقْرِ الْقَلْبِ، وَلَا غِنَى كَغِنَى النَّفْسِ، وَلَا قُوَّةَ كَغَلَبَةِ الْهَوَى، وَلَا نُورَ كَنُورِ الْيَقِينِ، وَلَا يَقِينَ كَاسْتِصْغَارِكَ الدُّنْيَا، وَلَا مَعْرِفَةَ كَمَعْرِفَتِكَ بِنَفْسِكَ، وَلَا نِعْمَةَ كَالْعَافِيَةِ، وَلَا عَافِيَةَ كَمُسَاعَدَةِ التَّوْفِيقِ، وَلَا شَرَفَ كَبُعْدِ الْهِمَّةِ، وَلَا زُهْدَ كَقَصْرِ الْأَمَلِ، وَلَا حِرْصَ كَالْمُنَافَسَةِ فِي الدَّرَجَاتِ، وَلَا عَدْلَ كَالْإِنْصَافِ، وَلَا تَعَدِّيَ كَالْجَوْرِ، وَلَا جَوْرَ كَمُوَافَقَةِ الْهَوَى، وَلَا طَاعَةَ كَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَلَا خَوْفَ كَالْحُزْنِ، وَلَا مُصِيبَةَ كَعَدَمِ الْعَقْلِ وَلَا عَدَمَ عَقْلٍ كَقِلَّةِ الْيَقِينِ، وَلَا قِلَّةَ يَقِينٍ كَفَقْدِ الْخَوْفِ، وَلَا فَقْدَ خَوْفٍ كَقِلَّةِ الْحُزْنِ عَلَى فَقْدِ الْخَوْفِ، وَلَا مُصِيبَةَ كَاسْتِهَانَتِكَ بِالذَّنْبِ وَرِضَاكَ بِالْحَالَةِ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا، وَلَا فَضِيلَةَ كَالْجِهَادِ، وَلَا جِهَادَ كَمُجَاهَدَةِ الْهَوَى، وَلَا قُوَّةَ كَرَدِّ الْغَضَبِ، وَلَا مَعْصِيَةَ كَحُبِّ الْبَقَاءِ، وَلَا

ذُلَّ كَذُلِّ الطَّمَعِ.

وَإِيَّاكَ وَالتَّفْرِيطَ عِنْدَ إِمْكَانِ الْفُرْصَةِ فَإِنَّهُ مَيْدَانٌ يَجْرِي لِأَهْلِهِ بِالْخُسْرَانِ».

وقال عليه السلام: «خُذُوا الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ مِمَّنْ قَالَهَا وَإِنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهَا؛ فَإِنَّ الله يَقُول: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾(١)، وَيْحَكَ يَا مَغْرُورُ أَلاَ تَحْمَدُ مَنْ تُعْطِيهِ فَانِياً وَيُعْطِيكَ بَاقِياً؛ دِرْهَمٌ يَفْنَى بِعَشَرَةٍ تَبْقَى إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ مُضَاعَفَةٍ، إِنَّمَا أَنْتَ لِصٌّ مِنْ لُصُوصِ الذُّنُوبِ كُلَّمَا عَرَضَتْ لَكَ شَهْوَةٌ أَوِ ارْتِكَابُ ذَنْبٍ سَارَعْتَ إِلَيْهِ وَأَقْدَمْتَ بِجَهْلِكَ عَلَيْهِ فَارْتَكَبْتَهُ كَأَنَّكَ لَسْتَ بِعَيْنِ اللهِ أَوْ كَانَ اللهُ لَيْسَ لَكَ بِالْمِرْصَادِ. يَا طَالِبَ الْجَنَّةِ مَا أَطْوَلَ نَوْمَكَ وَأَكَلَّ مَطِيَّتَكَ وَأَوْهَى هِمَّتَكَ فَلِلَّهِ أَنْتَ مِنْ طَالِبٍ وَمَطْلُوبٍ، وَيَا هَارِباً مِنَ النَّارِ مَا أَحَثَّ مَطِيَّتَكَ إِلَيْهَا وَمَا أَكْسَبَكَ لِمَا يُوقِعُكَ فِيهَا»(٢).

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٨.

(٢) في رحاب أهل البيت سيرة الامام الباقر عليه السلام، ص ٢١ – ٢٢.

المحتويات